ربيع جابر

تحوّلات

@ketab_n
Follow Me
27.9.2014

# كنتُ أميراً




رواية

المركز الثقافي العربي

ربيع جابر ـــــــــــــــ تحوّلات

# كنتُ أميراً

رواية

المركز الثقافي العربي

Twitter: @ketab_n

كنتُ أميراً

Twitter: @ketab_n

* كنت أميراً (رواية)
* تأليف: ربيع جابر
* الطبعة الأولى، سبتمبر 1997
* جميع الحقوق محفوظة
* الناشر: المركز الثقافي العربي

□ الدار البيضاء/ • 42 الشارع الملكي (الأحباس) • فاكس /305726/ • هاتف/ 303339 - 307651/.
• 28 شارع 2 مارس • هاتف /271753 - 276838/ • ص.ب./ 4006/ درب سيدنا.

العنوان:

□ بيروت/ الحمراء ـ شارع جان دارك ـ بناية المقدسي ـ الطابق الثالث.
• ص.ب/ 113-5158/ • هاتف/ 352826 - 343701/ • فاكس/ 00961-1-343701/.

Twitter: @ketab_n

الأحداث والشخصيات والأماكن والأسماء، في هذه الرواية، هي من نسج الخيال، فإذا وُجدَ أي شبه بين أشخاصها وأسمائها، مع أشخاص وأسماء حقيقيين، أو بين أماكنها وأحداثها، مع أماكن وأحداث حقيقية، فلن يكون ذلك سوى محض مصادفة، ومن الغرائب، ومجرّداً عن أي قصد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الجزء الأول

# الأمير أوفيد

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

عاش في إيطاليا القرن الرابع عشر أميرٌ مريضٌ، يتيم الأم منذ الطفولة، اسمه أوفيد، لا يُغادر قصر أبيه إلا بإذن من كبير الأطباء، ولا يفعل شيئاً طوال الليل والنهار غير قراءة الكتب ونسخها، ولعب الشطرنج عصر كل يوم، ومراقبة القمر والنجوم في الليالي الصافية. وكان لأوفيد صديق واحد اسمه توكا، فارس من أشهر فرسان أوروبا، يكبر أوفيد بثلاثة شهور فقط، وعندما لا يكون في حروب خارج المملكة يقصد القصر عصر يوم الأحد ويقف في باب القاعة الفسيحة منتظراً ابتعاد النبيل الجالس قبالة أوفيد، أياً كان هذا النبيل، كي يتقدم إلى مركز القاعة ويجلس في مقعده، ليبارز صديقه الأمير في جولة شطرنج بدأت قبل مجيئه، ولينتصر في معظم الأحيان، مهما كان وضع أحجاره ـ أو بالأحرى أحجار النبيل المتنحي ـ سيئاً لحظة وصوله. ذلك أن الفوز ما كان حصيلة مهارته في تحريك بيادقه، وهو الماهر فعلاً في رسم الخطط لها، بل كان فوزه



Twitter: @ketab_n

أولاً وأخيراً لعبة من ألعاب الأمير، الذي يجد في الخسارة أمام توكا الطريق الأسرع إلى الانتهاء من الجولة، والانسحاب من القاعة حيث الحاشية تصطف عن الجانبين، صامتة كالتماثيل ونظراتها مسدّدة إلى المربعات البيضاء والسوداء، كأن في هذه المربعات سرّ الحياة والموت (حياة ملك وموت آخر)، فها هي الشمس تغيب خلف نوافذ القصر، وعلى توكا المغادرة إلى زوجته فرنتشسكا قبل انتصاف الليل؛ وهكذا فالساعات القليلة لن تكفيهما للحكي: توكا يحكي عن رحلاته ومغامراته، بين السيوف أو وسط النساء. وأوفيد يخبره عن الكتاب الهائل الذي يقوم حالياً بنسخه(*)، أو عن حلم رآه قبل يومين وظهرت له فيه أمه، وقد نبت لها جناحا فراشة، كتلك الفراشات الصفراء التي تملأ حديقة القصر الخلفية. (يخسر أوفيد ليتاح له الدخول إلى غرفته مع توكا، فيبدأ الكلام).

وفي الزمن الذين تبدأ فيه هذه القصة، كان أوفيد مخطوباً إلى أميرة من نابولي، هي ماريا ابنة الملك روبرت، المشهورة بين الناس جميعاً، لأن الشاعر جيوفاني بوكاشيو من فلورنسا، تجرأ وأحبها بعد أن رآها لمرة قبل سنوات معدودة، في كنيسة سان لورنزو، خلال ليلة الفصح من عام

(*) قبل اختراع الطباعة في القرن الخامس عشر كانت الكتب تُخط باليد.



Twitter: @ketab_n

1341. بل وأنه كتب فيها قصيدة غزلية، مبدّلاً اسمها من ماريا إلى فيامتا خوفاً من عائلتها، ومن غضب البابا في روما.

إنها أمسية صيفية، يتخللها نسيم منعش، من تلك النسائم المتوسطية الرائعة. قبل ساعة غابت شمس هذا الأحد دون أن يأتي توكا. جلس أوفيد على شرفة القصر يتأمل النجوم في السماء ويفكر في العبارة التي انتهى من نسخها، على رقاق أسمر، قبل لحظات قليلة: «الكائنات الجميلة التي تحملها السماء». (هكذا يصف دانتي منظر النجوم في نهاية «الجحيم»).

في أمسيات كهذه ينتابه حزنٌ عميقٌ. هذا العصر انتهت جولة الشطرنج بخسارته. اللاعبون يأتون إليه من أطراف المملكة، ومن أقاصي أوروبا. (يسميها هكذا، المملكة، رغم انها إمارة ـ يعطي نفسه هذه الصلاحية لأنه يُدعى أوفيد، كما الشاعر القديم ـ المولود سنة 43 قبل الميلاد ـ مؤلف «التحوّلات»). وذات مرة جاء أميرٌ انكليزي لمبارزته قاطعاً بحر المانش والأراضي الفرنسية. وكلهم يخسرون. لا أحد يربحه إلا توكا، لأنه يتركه يربح. وهذا العصر خسر أمام غريبٍ للمرة الأولى لأنه كان شارداً يفكر في توكا، مترقباً وصوله بين لحظة وأخرى، وتوكا لا يصل أبداً.

من البركة التي تتوسط الحديقة تعالى نقيق الضفادع.



Twitter: @ketab_n

قبل أيام حلم أنه يسبح في النهر، منطلقاً تحت الماء كالسمكة. (منذ طفولته يُمنع عليه النزول في الماء. فقط في أيام الحر الشديد يدعه الطبيب يجلس في البركة الصغيرة، شرط ألا يعلو منسوب المياه رأس معدته).

في كبد السماء ابتسم قرص القمر الأبيض. حلّقت فراشة صفراء أمام أنف أوفيد ثم رفرفت فوق رأسه ومضت عبر الباب المفتوح إلى داخل الغرفة. التفت أوفيد وراقبها تختفي في عتمة الداخل، ورفيف أجنحتها ينساب في أذنيه ـ كخرير جدول في الليل.

فجأة قرر أن يتسلل خفية، يهرب من القصر، يمضي عبر الغابة إلى قصر الضيافة، يتسلق شجرة التوت إلى الشرفة الغربية، يطرق الزجاج بلطف، ينظر إلى الستائر تتحرك، ويرى وجه الأميرة ماريا يظهر له، والدهشة تملأ عينيها. (لقد وصلت مع أمها وخالتها، ظهيرة هذا اليوم، وغداً سيتناولن طعام الغذاء هنا).

نفذ أوفيد مخططه؛ هرب من القصر عبر باب المطبخ؛ مضى عبر غابة الصيف يرافقه غناء الصراصير ونقيق الضفادع وحفيف الأوراق؛ تسلق شجرة التوت بخفة شخص لا يتعدى وزنه الخمسين كيلوغراماً لكنه يملك في ذراعيه قوة كافية لنسخ «جحيم دانتي» ـ من نشيده الأول حتى نشيده



Twitter: @ketab_n

الرابع والثلاثين ـ في سبعة أيام فقط (مع هوامش يضعها بنفسه)، وأوشك أن يطرق زجاج البوابة المفضية إلى غرفة النوم حيث الأميرة ماريا.

أوشك أن يطرق الزجاج لكنه لم يفعل. فجأة سمع صوت خوفه: الدم يهدر في شرايينه، ونبض قلبه يصعد إلى جمجمته. ما هذه المغامرة التي أقدم عليها؟ وهذا الألم في صدره، وضغط أضلاعه على رئتيه ـ هل سيدخل في نوبة سعال تقضي عليه؟ وماهذا الطعم تحت لسانه، ولماذا يحس رطوبة في أنفه، أيصيبه نزيفٌ الآن؟

من أين يجلب الشجاعة؟ من فرجيل وهوميروس أم... بلى، من صديقه توكا. (كلما تحدث مع توكا تذكر مغامرات آخيل وأوذيبس وإنياس!). أيطرق الزجاج إذن؟ لا، بل يدفع البوابة ويدخل، ويتأمل عيني حبيبته وأميرته تتسعان بالدهشة والحب. (هذه الأبواب تُوصد بالقفل والمفتاح في الشتاء وأيام الرياح فقط. أما في الصيف فتخبأ المفاتيح في خزانة القصر. فإذا أراد نزيل إحدى الغرف النوم والبوابة مغلقة توجب عليه أن يضع كرسياً أو طاولة خلفها كي لا يشرعها النسيم).

في الداخل، خلف الستائر، لهب شمعة يرتجف. لا بد وأنها تقرأ في كتاب. ماذا تقرأ، الإنجيل، نشيد سليمان؟



Twitter: @ketab_n

الأصحاح الثالث: «في الليل على فراشي طَلَبْتُ من تُحبُّه نفسي طلبتُهُ فما وجدتُهُ. إني أقومُ وأطوف في المدينة في الأسواق وفي الشوارع أطلبُ من تُحبُّهُ نفسي. طَلَبْتُهُ فما وجدْتُه...؟» أم أنها وصلت إلى الاصحاح الرابع: «ها أنت جميلة يا حبيبتي ها أنت جميلةٌ عيناك حمامتان من تحت نقابك. شعرك كقطيع معزٍ رابضٍ على جبل جلعاد».

لصق الستائر ظل. إنه كرسي خلف البوابة ـ فإذا دفعها قد يسقط الكرسي وتجفل الأميرة، ويقع منها الكتاب، أو تقع الشمعة. إذن، ليحرك الباب رويداً رويداً، بلطف...

دفع أوفيد الباب. العرق يسيل على سلسلته الفقرية. أطرافه ترتعش. خيل إليه أنه يسمع صوتاً كالهمس. هل تقرأ كلمات المسيح في تمتمة؟ أهي تصلي راكعة على الأرض؟ هل يقطع عليها حديثها مع ربّها... «أبانا الذي في السموات، ليتقدس أسمك...».

مدّ رأسه بخجل، رأى ضوء الشمعة يصنع شبكة صفراء فوق السرير العالي، وداخل الشبكة المعلقة كانت ماريا، أميرته، عاريةً، وقد التحمت بصديقه توكا، متعانقين كما لم يتعانق لبلابٌ وشجرةٌ أبداً، لزجين وملتصقين بعضهما ببعض كما لو كانا من شمعٍ ساخن.

ماريا وتوكا، توكا وماريا... هكذا تمتم الأمير أوفيد



Twitter: @ketab_n

بينما يهبط شجرة التوت، بينما يمضي في الاتجاه المعاكس للغابة، بينما يقطع السهول، بينما يخوض في النهر، بينما يتجاوز حدود الإمارة، بينما طرقات القدر تأخذه إلى حيث لا يعلم ولا يستطيع أبداً أن يتخيل ـ رغم أنه يُدعى أوفيد. ماريا وتوكا، توكا وماريا... ركض أوفيد والإسمان يسقطان من فمه مرة تلو المرة، كمثل حجرين في صدره، وكلما بصقهما كي يتنفس، أحس بهما مجدّداً، في حنجرته، في قصبته الهوائية، يخنقان رئتيه، يقتلانه.

بعد أيام، مخموراً وساقاه تنزلقان تحته، اصطدم بعجوزٍ في زقاق مظلم من أزقة فلورنسا.

قالت له: «أعطني شيئاً آكله، باسم المسيح».

قذفها ـ بكل كراهيته الجديدة للجنس البشري ـ بضربة من يمناه على الجدار. (لا يذكر أنه ضرب شيئاً في حياته ـ بلى، عندما كان في الخامسة من عمره رمى حجراً على كلب صيد، من الشرفة إلى الحديقة!).

دمدم ضاحكاً: «لماذا أصدقك؟ قد تكونين ثرية وتحتالين علي! وربما كنت وثنية!».

سألته (كان يراها كومة سوداء) من مطرحها، أسفل الجدار، بكلمات هادئة: «ولماذا أكذب عليك؟».



Twitter: @ketab_n

أجابها: «الطبيعة البشرية».

ظلت صامتة. (تتكوم كقنفذ، أو كشجرة وزال!)

تابع: «الإنسان كاذب، غدّار كالضبع، لزج وحقير كالضفدع».

قالت: «إذاً أنت لا تؤمن بالإنسان، ولا تثق به. أهذا ما تقوله؟»

تجشأ: «هذا كل ما أقوله. هذا يكفي للتاريخ كلّه. من يريد أن يقول أكثر؟»

نهضت مثل زاحفة من الزواحف تتحول إنساناً فجأة، فدبّ الرعب فيه مثل جيش من العقارب يسعى تحت جلده، إذ تذكر الأنشودة الخامسة والعشرين من جحيم دانتي اليجيري، بينما انتصبت العجوز أمامه وقد شُحن الفضاء حولها بالكهرباء. قالت:

ـ من لا يؤمن بأخيه الإنسان ليس إنساناً، لا يستحق أن يكون... من الآن حتى تعود إليك روح الإنسان، حتى يحبك إنسانٌ، كنْ هذا المخلوق الذي تحتقر، كنْ...

وقبل أن تلفظ كلمتها الأخيرة، هبطت درجة حرارة جسمه من 37° مئوية إلى 11° مئوية، ووجد الأمير أوفيد نفسه ملتصقاً بالأرض، وقد تحوّل إلى ضفدع.



Twitter: @ketab_n

# الجزء الثاني

# قبل سنوات...

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

## كوميديا باولو

سميلا وليديا، من باليرمو في صقلية، وُلدتا من بطنٍ واحدة خلال اللحظات الأخيرة من القرن الثالث عشر. هل يستطيع المرء أن يميز بين فلقتي حبّة الفاصوليا؟ إذاً، فكيف يميز بين ليديا وسميلا.

قامة ممشوقة، بشرة سمراء، شعر أسود طويل، وتلك العيون الواسعة! سميلا وليديا كانتا فتنة الجزيرة ومأساة والدهما باولو ـ الذي يعيش من زراعة البطاطا وتربية دود الحرير.

1320: 10 سنوات بعد موت والدتهما، 20 سنة بعد خروجهما من بطنها الدافئة المعتمة إلى عالمنا، ولا زواج بعد. ماذا يفعل المسكين باولو؟ خصوصاً وأن الكلام السيّء شاع في الجزيرة. بعضهم يقول أن باولو لا يقبل بتزويج



Twitter: @ketab_n

الفتاتين لأنه يريدهما لنفسه، وبعض يقول إنهما هما اللتان تريدانه، وبعض ثالث يزعم أنهما لا تريدانه لا هو ولا غيره، بل تريدان ما حصلتا عليه دوماً.

«وما هو هذا؟».

الجواب خبيث: «سميلا حصلت على ليديا. وليديا حصلت على سميلا».

ـ هل تعني أنهما؟ مع بعض؟ هي وأختها؟

هذا الكلام انتشر في الجزيرة، عَبَرَ المياه إلى إيطاليا، ربما بلَغَ البابا في روما، من يعلم؟ فماذا يفعل باولو المسكين؟ ماذا يستطيع أن يفعل؟

كلما جاء خاطبٌ يريد فتاة من فتاتيه، احتار بينهما. الوجه ذاته، القامة ذاتها، الشعر ذاته، حتى القميص الأبيض والتنورة الزهرية، لا فرق إطلاقاً، معاً تخيطان الثياب، تأكلان، تستحمان، تنامان (النوم العادي لا شيء آخر)، حتى باولو لا يميز الواحدة عن الأخرى، فكيف يميز خاطبٌ غريب بينهما؟

تقولون: إذا كانتا كأنهما واحدة فهذا سهل، ليأخذ الخاطب الأبله أياً منهما؟ وهل يحتار المرء أمام برتقالتين متشابهتين حتى أصغر تفصيل؟



Twitter: @ketab_n

لكن هنا بالضبط تكمن المشكلة. لنفترض أن الخاطب اختار سميلا، أقصد تلك التي قالت إنها تدعى سميلا، الجالسة إلى اليمين تحت النافذة. حسناً، سميلا لك، يقول الأب باولو. فتقف سميلا وتتقدم خطوة من أبيها والخاطب الجالس إلى يساره. وفي تلك اللحظة ماذا يحصل؟ يلتفت الخاطب نحو ليديا التي ظلت جالسة في مطرحها، ويداها على فخذيها، كالطفلة، تبتسم. فجأة يكتشف أنها أجمل من سميلا.

يهتف، فعلاً يهتف: «لا، أريد الأخرى».

فتعود سميلا إلى مطرحها وتنهض ليديا إليه تتهادى كالفراشة، جميلة ولذيذة كالماء بعد عبور الصحراء، لكن الخاطب ـ دون أن يقصد ذلك ـ يلتفت نحو سميلا. إنه لا يلتفت، إن قوة ما تملأ الجو تخطف نظراته نحو سميلا، وعندئذ ماذا يحصل؟ تماماً: «لا، أريد الأخرى».

كم واحداً دخل ذلك الكوخ منتفخاً كديك، ليخرج حائراً. حائراً أم حرداناً؟ لا يدري ماذا يفعل بنفسه. كالصبي نزل إلى البحيرة يصطاد، وبعد أن صاد ورمى عشرين سمكة في سلته، اكتشف أن قعر السلة مثقوب، وأنه كان ينزع الأسماك من صنارته، ليرميها، عبر السلة، إلى الضفة والنهر مجدداً!



Twitter: @ketab_n

وباولو، باولو المسكين ماذا يفعل؟ لا شيء. بيده يصنع نبيذه، من كرمه يصنعه. مواسم البطاطا الربّ يسوع المسيح جعلها حنونة، ودود الحرير لا أحد في الجزيرة إلا ويعرف قيمته. لكن قيمته هنا، عند باولو، مضاعفة. لأنه يملك سميلا وليديا، لأن ورقة التوت التي تأتي من يد باولو أو أي كائن آخر في هذه الجزيرة، هي غير ورقة التوت التي تأتي من يد سميلا أو ليديا.

دودة الحرير ترقص إذ تدخل بيت القزّ إحدى فتاتيه، ترقص وتنقض على الورق المفروم، بل وعلى الأغصان الطرية أيضاً. ومن رقّة أيديهما، أيدي سميلا وليديا، تنسج الدودة حريرها. وفي الأمسيات، أمام الكوخ، والنجوم ترصع السماء، وأصوات الحشرات تأتي من الغابة القريبة، والضفادع تنشد نشيدها الليلي، بعيداً حول البحيرة الفضية، يجلس باولو على الطراحة، وقربه سميلا وليديا، وتعريشة العنب فوقهما، ليشربوا النبيذ معاً، ويأكلوا زيتوناً أخضر، وخبزاً أسمر، وجبناً أبيض ـ فلماذا يعيش باولو في القلق نهاراً، ولماذا الأرق سيد لياليه؟

عندما يحمل أكياس البطاطا على ظهر بغله إلى السوق، عندما يناديه أحد المزارعين لغرض ما، ربما ليجلب له شيئاً من السوق، ربما ليرسل معه نصف كيس بطاطا أو سلة بيض أو ربما حذاء للاسكافي كي يصلحه، لماذا كلما



Twitter: @ketab_n

نادى أحدهم باولو وجدته يلتفت مذعوراً ويرتطم ببغله السائر قربه، واللون مخطوف من وجهه؟ لا، ليس وجه البغل، طبعاً وجه باولو.

هناك سوسة في صدر هذا الرجل! انظروا الكرمة أو شجرة الخوخ حين تسكن جذعها سوسة! انظروا كيف حتى تحت المطر المنعش الرقيق تبدو النبتة المشتاقة إلى المطر كأنها عاجزة عن التنفس. إنها تتململ كالأفعى في الصيف! تعرفون لماذا، لأن السوسة تحفر قلبها كالنار، وهكذا باولو!

ماذا فعل باولو؟

ماذا رأى باولو؟

البعض يقول إنهما كانتا في البحيرة ـ طبعاً سميلا وليديا، من غيرهما؟ ـ عندما رآهما. منذ زمن بعيد لم يبصرهما عاريتين، لم يعرف إنهما قد كبرتا هكذا! أيتها الآلهة؟ كيف من بذرة في بطن امرأة تميل إلى القبح (هذه هي الحقيقة: أمهما لم تكن جميلة) نمت هاتان الشتلتان اليانعتان! لقد شربتا من ماء النبع الفوّار قرب الكنيسة مثلهما كمثل فتيات وصبيان وأهل القرية جميعاً، فلماذا هما هكذا، وغيرهما ليسوا ـ ولسن ـ هكذا؟

ماذا فعل باولو؟

ماذا رأى باولو؟



Twitter: @ketab_n

يقولون إنه في تلك الليلة فعل ذلك الشيء. مع الاثنتين معاً! هو السنديانة، وهما فرعاها، أليس كذلك؟ بالطبع ليس كذلك!

ماذا فعل باولو؟

يقولون إنه لم يفعل شيئاً. المسكين كانت المرحومة تفعل ذلك عنه. وابنتاه مثلها. هو لم يفعل، هما فعلتا.

كيف؟ هل يُعقل؟

وهل نسيتم كتابكم المقدس! افتحوا العهد القديم، التكوين، اقرأوا في الإصحاح التاسع عشر: «وصعد لوطٌ من صوغر وسكن في الجبل وإبنتاه معه. لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وإبنتاه. وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجلٌ ليدخل علينا كعادة كل أهل الأرض، هلمّي نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه. فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة. ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها. ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه. فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً. وقامت الصغيرة



Twitter: @ketab_n

واضطجعت معه. ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت إبنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر إبناً ودعت اسمه موآب. وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بن عمي. وهو أبو بني عمون إلى اليوم».

وهذا كلّه أين ومتى يحصل؟ إنه يحصل في الأصحاح التاسع عشر، أصحاح خراب سدوم وعمورة! لا، ليس قبل الخراب بل بعده! أمطر الربّ على المدينتين ناراً وكبريتاً، ورسم دائرة حول الأرض وخرّب مدن الدائرة وقلبها، وفعل كل ذلك الدمار مباشرةً بعد أن أرسل رجلين لإنقاذ لوط وعائلته من الهلاك. والذي حصل؟ سعى لوط مع زوجته وإبنتيه إلى الجبل، نظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملحٍ، وهو نجا بحياته مع فتاتيه، وهما؟ في المغارة سقتاه خمراً وفعلتا معه ذلك الشيء. ومنه أنجبتا ولدين. ومن الولدين جاء أجدادنا! ونحن.

سميلا وليديا، هل فعلتا الشيء نفسه بباولو؟ مع باولو. حول باولو. على طراحة باولو! كل هذه الليالي.

«أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك، ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، أعطنا خبزنا كفاف يومنا، وأغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، كما نحن نغفر لمن أخطأ وأساء إلينا، ولا تدخلنا



Twitter: @ketab_n

في التجارب، لكن نجنا من الشرير، آمين».

نجنا من الشرير، أبانا.

لكن ماذا فعل باولو؟

وسميلا وليديا، لماذا كالراعي وعصاه، لماذا كالعصا وظلّها، لماذا كالكاحل والقدم، سميلا وليديا، لماذا أبداً لا تفترقان؟

باولو السكران في السوق ينذر إذا تزوجت سميلا أو ليديا قبل نهاية هذا العام سيسبح إلى إيطاليا ويمشي حافياً على الشوك والصخور، بلا خبز وبلا ماء، حتى روما!

ـ حتى روما! يقولون له هازئين. (لأنه يعرج من ساقه اليمنى، وأحياناً يركب البغلة المحملة بأكياس البطاطا الثقيلة كي لا يصل السوق لاهث الأنفاس متورم القدمين).

ـ بل، وحتى آخر العالم. وكل رجل وإمرأة وطفل وشيخ في السوق، شاهد على كلماتي هذه أمام السماء، اليوم وحتى القيامة: إذا تزوجت سميلا أو ليديا قبل آخر هذه السنة سأمشي حتى آخر العالم، حتى إيرلندا(*). وعندما تغيب الشمس هنا، ستكون ما زالت على وشك المغيب

(*) اعتقاد شائع قبل اكتشاف أميركا في 1492.



Twitter: @ketab_n

هناك. وسوف تقولون باولو الذي سخرنا منه وفى نذره. وتشربون نخبي.

ـ نشرب نخبك من الآن باولو. لكن هل تركت لنا قطرة نبيذ في جرارك؟ أم شربت كل مخزون السنة لتوك؟

ـ باولو، باولو أيها العزيز. حقاً النبيذ الجيد يصنع الخطيب الجيد. لهذا السبب يحسن الرهبان تنميق الكلام.

ـ باولو يا مسكين.

وباولو المسكين يضيع في زحمة السوق وضحك الساخرين منه، ويضيع في همومه. بل هميه: سميلا وليديا. فماذا يفعل؟ ماذا يستطيع أن يفعل؟



Twitter: @ketab_n

## باخوس الكبير يغرق

باخوس من وسط إيطاليا، يقولون إمارته أوسع من جزيرة صقلية، يقولون البابا نفسه يستشيره في الصغيرة والكبيرة، يقولون إن الأمبراطور فردريك الثاني الشهير الذي حكم صقلية والبلاد في القرن الماضي (القرن الثالث عشر) هو عرّابه.

لكن أحداً لا يناديه باخوس، لماذا؟ لأن طوله مئة وتسعون سنتمتراً، لأنه يزن مئة وعشرين كيلوغراماً، لأن رجلاً ضخماً كهرقل بالكاد يستطيع أن يلفه كجذع شجرة بين ذراعيه، ولأن ضحكته تشبه جبلاً يقع. هذه بعض الأسباب(*) التي تجعل اسمه باخوس الكبير.

* * *

(*) في زمن قادم، سيطلع توكا الأمير أوفيد على أسباب أخرى.



Twitter: @ketab_n

هذه الأيام (أيار في أواخره، موسم الحرير كان عظيماً، يقولون إن باولو سيصبح غنياً لو استمر إنتاج قزّه هكذاً!) هناك كلام في الجو، يدور في أزيز وطنين، كأن أحدهم قد سدّ قفير نحل بالعشب ثم أشعله. عندما تُترك بقرة ميتة في الفلاء (فكروا في طوفان السنة الماضية، وتلك البقرة في سهل الذرة)، فلا بد أن تنفخ غازات الموت أحشاءها. ذلك الكرش المنتفخ إذا قُذف فيه سهم، كيف ينفجر؟ وأية أوساخ وقاذورات تخرج منه؟ بقايا كل شيء أكلته البقر خلال حياتها، صح؟ (وقد هضم وأجترّ ثم تحوّل غائطاً!)

هذا بالضبط ما يحصل الآن. كل تلك الحكايات عن باولو وإبنتيه، كل تلك الكلمات التي قذفناها في بطن جزيرتنا، تُصدر الآن طنيناً! هذه ليست أجنحة نحل أو ذباب، هذا صوت الانتقام القادم!

الملك والبابا ـ والربّ خلفهما ـ قررا إرسال ثلاثة مفتشين إلى جزيرتنا، من روما. متى؟ قبل الخريف قصة سميلا وليديا باتت معروفة في أوروبا كلها، وفي آسيا أيضاً. (يقولون إن امبراطور الصين قال لأخت زوجته مازحاً إنه يتساءل أحياناً بخصوص الحب الكبير الذي تكنه للمرحوم أبيها، ولأختها كذلك، يخاف أن تكونا مثل سميلا وليديا).

الآن نسدّ أنوفنا. نحن الذين تركنا البقرة في الفلاء،



Twitter: @ketab_n

نحن الذين قتلنا البقرة أصلاً (طبعاً، وهل يملك أحدٌ منكم دليلاً، على حصول أي شيء شنيع في كوخ باولو أو حوله؟)؛ الآن نقول إن السبابة والإبهام من الأصابع المهمة، ونضغط على أنوفنا. مالك الحزين يُغرق رأسه في الرمل كي يختفي الثعلب، لكن الثعلب ينقف نفسه كالحجر على عنق مالك الحزين ويقبض روحه. اضغطوا أنوفكم، الرائحة باقية!

لكن هناك أمل بالخلاص من هذه المصيبة (طبعاً مصيبة، إذا كان باولو قد صنع شيئاً فظيعاً، فنحن في هذه الفظاعة معه، لا أحد يحلم بالنجاة!). هناك أمل بالخلاص، هذا ما يقولونه.

طبعاً هناك الشعوذات أيضاً. (هل هذا أمل؟) العجوز الذي يدعى إيتالو، والذي جاء إلى باليرمو قبل سنتين، يحاول استحضار روح الامبراطور فردريك الثاني لإنقاذ جزيرتنا من الورطة. فردريك يعرف، يقول إيتالو (كأن فردريك من أولاد عمه) فردريك، ليس لنا إلا فردريك، إنه ضليع في الدين والفلك واللاتينية واليونانية والعربية، في عهده كان الشعراء يأتون من هناك، كلّهم، والفلاسفة، ويترجمون الكتب إلى اللاتينية، ويأكلون اللحم المشوي والسمك والبيض والخوخ، ويضحكون معنا، فردريك يعرف كل شيء، سوف يخلصنا!



Twitter: @ketab_n

لكن ايتالو ليس الأمل الذي أتكلم عنه. (إنه ركام وليس رجلاً، ويحسب أنه هو ـ وليس أجداده ـ من قطع القارة مشياً إلى آسيا، إلى بلاد العرب في الحملة الصليبية الأولى!)

الأمل هو باخوس الكبير. يقولون إنه كان في زيارة إلى جزيرتنا عندما رآهما. أين؟ في البحيرة. متى؟ ليلاً. وماذا حصل؟

البحيرة في الشمس ذهب سائل، في القمر فضة رجراجة. وهما، سميلا وليديا، وسط البحيرة ونقيق الضفادع؟ لماذا تنق الضفادع، العشرات منها بل المئات، في نشيد متوتر متواصل، الأكياس تحت فمها تنتفخ بالهواء كرك كرك كرك كوكس كرك، فقط الذكور منها، ترسل هذا النداء. طبعاً، ترسل النداء إلى الإناث، تدعوها إلى المجيء، إلى التزاوج.

تلك الليلة، فجأة، سكتت الضفادع. في الجزيرة كلّها حلّ صمتٌ. نيزك، يقولون. نيزك عَبَرَ السماء، والذرّات المشعة لذيله غطّت الغابات والسهول ونزلت فوق البحيرة والفتاتين. يقولون دود القزّ الذي لا يتوقف عن طحن الورق ليلاً نهاراً تجمد في مطرحه. يقولون الديدان ـ في البيوت الأخرى إلى الشمال ـ التي كانت بدأت تلف شرانقها الحرير على الوزال لتنام وتتحول إلى فراشات، تلك الديدان وقعت



Twitter: @ketab_n

عن عيدان الوزال. وبعد أن عبر النيزك، لفت شرانقها على الأرض، حيث هي. لكن ماذا حصل فعلاً؟

يقولون نيزك، لكن النيزك لا يبدّل الأشياء. لنفرض أن النيزك عَبَرَ، ماذا إذاً؟ كل ليلة تعبر النيازك الفضاء، أحياناً نراها، أحياناً لا نراها، هل تتبدل حياتنا؟ حتى إيتالو الخرف لا يؤمن بالنيازك. إنه يفتح لك خزانته ويخرج خريطة لا أحد يعرف من أين جاء بها ويقول لك: «لا نيازك هنا». إنها خريطة بطليموس للنظام الفلكي: الأرض في مركز الكون، ويلف حولها، في مدارات دائرية، وبترتيب بُعدها عن الأرض، كل من القمر وكوكبي عطارد والزهرة، ثم الشمس وكواكب المريخ والمشتري وزحل، ويلي ذلك الكرة الخارجية للنجوم. لكن لا نيازك. يقولون لايتالو «أين النجوم؟» يجيبهم: «لا نجوم هنا». ولأن بصره ضعيف هو أعمى تقريباً، فقط يميز حدود الأشياء بلا تفاصيلها، وبلا ألوانها)، فهو ينتصر عليهم في الجدل إذ يخرجونه من كوخه إلى السهل ويقولون له: «انظرْ فوق، انظرْ إلى النجوم تملأ السماء!»

ـ لا نجوم في الكون، يقول إيتالو.

أين كنا؟ كنا نتحدث عن تلك الليلة. عندما همدت الديدان. ولهب الشمعة الذي يضيء قصور عديدة (لكنه لا



Twitter: @ketab_n

يضيء أكواخنا الخشبية، فمن يجرؤ على اشعال الشمع هنا!) توقف فجأة عن الارتجاف. والضفادع سكنت. وموج البحر تحول إلى جليد. كانت البحيرة تشهد ذلك الشيء.

رذاذ ضوء يشبه الرمل لكنه ليس رملاً، يشبه مطراً معرضاً لأشعة الشموع لكنه ليس كذلك، كان يهطل من السماء، من ذيل النيزك، ويصنع قبعة شفافة فوق البحيرة كلّها. وتحت القبعة كانت سميلا تغسل ظهر ليديا. أو ليديا تغسل ظهر سميلا، كيف لنا أن نعلم، كيف تميز عينك اليمنى عن عينك اليسرى إن قلعهما لك أحدٌ ووضعهما ـ لك أيضاً ـ على طاولة أمامك كي تقارن بينهما؟ (تشبيه دموي تعيس. كيف ستقارن أصلاً إذا خسرت عينيك. لنقل إذاً: قَلَعَ أذنك اليسرى وأذنك اليمنى).

وعلى ضفة البحيرة، كان حصان. وعلى الحصان فارس بالخوذة، بالبذلة الفضية، مع الرمح والسيف والخنجر. حصان عملاق، لكنه بدا متعباً تحت وزن الفارس الضخم. صحيح، بالضبط، فارس أضخم من حصانه، الأمير باخوس الكبير.

والآن، منذ أيام، منذ أُرسلت الشرانق إلى الكرخانات كي تُرمى في الخلاقين المليئة بالماء المغلي وتُحل خيوطها وتُغزل وتُنسج منها ثياب الأميرات (كل خيط شرنقة يستطيع أن يلف محيط كنيستنا مرتين أو ثلاثاً)، منذ أنزلت السقايل



Twitter: @ketab_n

والخزائن والرفوف وأعيدت إلى الأقبية وقد التصقت بجوانبها مخلفات الديدان (غُسلت بالكلس جيداً لقتل الجراثيم، لكن لونها كل سنة يغدو كالحاً وقاتماً أكثر من السنة السابقة). منذ عادت الحياة في الجزيرة إلى إيقاعها الهادىء (لا هدوء مع موسم القزّ، ركض وتقطيع أغصان وورق، وتهوئة في الحرّ، ومراقبة لإبعاد الحشرات والقطط والثعالب)، يبدو أن كل شيء يهتز كقدر على النار. أين هو الإيقاع الهادىء لحياة جزيرتنا؟ صح، موسم الحرير كان رائعاً (الانتاج عظيم وأسعار السوق على غير عادة عظيمة أيضاً)، لكن هذا الخبر، هذه المصيبة، لماذا يُرسل البابا مفتشيه الآن؟

لكن الأمل موجود. أن تتزوج سميلا أو ليديا، أو الاثنتان معاً ـ من يعلم؟ ـ قبل الخريف. لو نجد في مكان ما شابين توأمين، ونحل المشكلة! لا، لن يُحل شيءٌ، ستنتاب كلاً منهما الحيرة، سيتجادلان لأن هذا أسهل من أن يجادل المرء ذاته (رأينا قبلهما خُطّاباً كثيرين، كان الواحد منهم يأتي بمفرده كي يحتار ويجادل ذاته حى يتصدع رأسه فيرحل خائباً). وبعد الجدال ربما تقاتلا. وربما قتل واحدهما الآخر! فيبقى واحد، فلا يجادله أحد في خياره، فيختار التي يشاء منهما. يقول أريد سميلا، وعندما تتقدم منه، تحين منه التفاتة إلى الأخرى فيهتف: «لا، ليديا». وهكذا، إلى ما لا نهاية.



Twitter: @ketab_n

لكن الأمل موجود. يقولون في تلك الليلة، وكان الدب الأكبر مرتسماً في السماء كأن عجوزاً خطّه بعودٍ فوق صفحة الرمل، يقولون في تلك الليلة نزل الفارس عن حصانه، ترجل وخاض في الماء. كان رذاذ الفضة والنار ينعكس على سترته، وضوء القمر كان يرسم دائرة بيضاء كالثلج حوله، يقولون إنه تقدم في البحيرة بصعوبة، كأنه يمشي في حقل مغطى الثلج، في الدانمارك أو إيرلندا، أو كأنه يمشي في المحيط معاكساً التيار. (كأن رذاذ النيزك الهابط رذاذ موج صاعد!)

فجأة التفتت سميلا أو ليديا. لم تلتفتا معاً، لا. واحدة فقط، هي سمعت صوته أولاً، أو ربما أحست بحركة في مويجات البحيرة. ربما كانت الواحدة التي يُغسل ظهرها في تلك اللحظة ـ من يعلم؟ لكن التي التفتت هي التي أحبها فوراً. يقولون خرج من درعه صوت هادر. يقولون كان يضحك. لكن إذا كان حبّاً، فذلك قد كان صوت البكاء.

عابراً البحيرة أخذ يغرق بينما يتقدم نحوها. طبعاً، درعه، خوذته، سيفه، جزمته، خنجره، كل ذلك حديد ونحاس وفضة، وكثافته فظيعة، فكيف لا يغرق؟ وعندما أصبح على بعد خطوتين منها، بلغت المياه عنقه. وظل رأسه ظاهراً كرأس رجل مدفون حتى العنق في التراب. (هكذا كان يدفنهم فردريك، هؤلاء الذين يقولون إن لذة



Twitter: @ketab_n

الجسد أبقى من لذة الفكر. كان يقول لهم: التذوا بجسدكم الذي تحت التراب لأنه تراب، والتذوا برأسكم الذي فوق التراب لأنه ليس تراباً، لكنه ترابٌ سيكون غداً!)

والدرع يجذبه نزولاً، والفارس يتقدم نحو فتاته. وعندما أصبح على بعد ذراعٍ منها، علت المياه فوق أنفه وبلغت عينيه، ودخلت الخوذةَ.

في تلك اللحظة بينما يختفي تحت سطح الماء، كسفينة مثقوبة القعر، استدارت الفتاة التي أحبها وواجهت أختها. (الأخت التي منذ فترة أيضاً وهي تراقب تقدم الفارس الصامت داخل البحيرة نحوهما). ثم استدارت مجدِّداً وغطست وراءه.



Twitter: @ketab_n

## خاتمة مؤقتة لكوميديا باولو

تحت الماء حدث ذلك. كما يفعله حيوان البحر فَعَلاه. ليكن اسم المرأة سميلا. (هي قالت إنها تُدعى سميلا والأخرى ابتسمت ولم تقل شيئاً). قدماها تلامسان قعر البحيرة المغطى بالطحالب والخزّ، الأسماك الصغيرة تسبح حولها. من فمها تخرج فقاعات الهواء، والبلاعيط الكثيرة تخبط حولها (هذه البلاعيط التي ستتحوّل إلى ضفادع بعد أيام أو أسابيع أو شهور)، وضوء القمر الفضي بالكاد يصل إليها في خيوط مكسورة ومرتجفة. وعندما اصطدم جسدها العاري بدرع الفارس المعدني، سمعت ضجة خافتة فوقها. كانت تعلم أنها أختها، قد غطست لاحقة بها لتساعدها على إنتشال حديد الفارس الصامت قبل أن يمتلىء صدره بالماء، فرفعت يدها (كم كان الماء ثقيلاً فوق عضلات ذراعها المتعبة من فرك ظهر أختها طوال المساء!)،



Twitter: @ketab_n

وبأصابع ممشوقة كعيدان القصب أشارت لأختها أن ظلّي فوق، لا تنزلي إلى هنا.

الماء دوامات دقيقة حولها، الهواء الخارج من درع الفارس وخوذته ملأ المسافة بين جسديهما ـ بين جسدها ودرعه ـ بفقاعات كثيفة كرغوة الصابون. كان عليها إذاً، ليس فقط أن تزيح كل تلك الأمتار المكعبة من الماء التي تفصله عنها، ولكن أن تبعد أيضاً جيش الفقاعات الذي أصبح صلباً وغير شفافٍ مثل جدار. صرخت له في الماء كي ينزع درعه، لعل الفقاعات تصعد مع الدرع إلى سطح البحيرة. (في خيالها رأت الدرع يصعد إلى سطح البحيرة، يشق صفحة الماء ويخرج كالدلفين إلى ضوء القمر، وإلى غبار النيزك الذي اختفى بين النجوم ـ قالت الأخرى إنه سقط آخر الأرض!)

صوتها في الماء كأنه نقيق ضفدع، فقاعة كبيرة أضافت حجراً جديداً إلى جدار الفقاعات. لكن يد الفارس امتدت عبر الجدار وأمسكت بها من كتفها.

معاً شقا طريقهما صعوداً، الفارس يعانقها من الخلف. كان ظهرها على بطنه، وأحست بيديه الكبيرتين تمعسان بطنها.

* * *



Twitter: @ketab_n

يقولون إنها مريضة ـ التي تقول إنها تدعى سميلا ـ يقولون إنها مريضة، إن باولو المسكين سمعها تصرخ في الليل، فقام وكشف الغطاء عنها (منذ حادثة البحيرة باتت الأخرى تنام في الطرف الآخر من الكوخ)، وعندئذٍ ماذا رأى؟ بقعاً حمراء كالدم تغطي جسمها كلّها.

قناديل البحر لا تعيش في البحيرة كي تلتصق بها ـ بتلك التي أحبها الأمير باخوس الكبير ـ وتسمم جسمها هكذا. لكن هناك حشرات بحرية كثيرة في البحيرة، ثم هناك ذلك الغبار من النيزك ـ من يعلم؟ (يقولون الحب الصاعق الفظيع، بنوره المشع كالشمس هو الذي أحرقها!)

غطّوها بضمادات من أعشاب الجبل، امسحوها بالزيت المقدس، صلّوا لها، قولوا إن الربّ سيشفيها، وإلا...

* * *

إنها تموت. أختها قربها، تمسك بيدها. (هناك، في البحيرة، رأسها فقط ظاهر فوق الماء، بينما الأخرى عند الضفة تجمع ثيابها، التقت نظراتهما. وكان الفارس يعانقها من الخلف، وشعره الأسود الكثيف يطوف مبلّلاً فوق كتفها كشعر فتاة، كشعر أختها!)



Twitter: @ketab_n

إنها تموت. أختها تميل فوقها، تستمع إلى همسها. (كانت عارية عند الضفة، وخلفها أشباح الغابة تتمايل في نسيم ـ حرّكه في فضاء الأرض ذلك النيزك الذي عبر وبدّل كل شيء ـ وفوقها، في السماء العالية، تألقت النجوم كما لم تتألق من قبل أبداً).

إنها تموت. تأخذ يد أختها وتضعها على بطنها. (متى حدثت معجزة واحدة فإن المعجزات لا تكف عن الحصول، يقول ايتالو الأعمى).

إنها تموت. لكن احتضارها يقدر أن ينتظر ثمانية أو تسعة أشهر.

* * *

في شعرها الأسود الطويل التقطت الأخرى قملاً سارحاً. عقصته وغسلته بالرماد والزيت ثم نزلت في البحيرة. (الضفادع أفضل علاج للقمل).

وبينما تخرج من البحيرة ـ هذه التي ظلت على الضفة تلك الليلة، هذه التي تقول إنها ليديا ـ رأته هناك حيث رأته قبل تسعة شهور أختها سميلا. لكن الوقت هذه المرة كان نهاراً، والبحيرة ذهبية لا فضية. وهكذا لم ينزل الفارس عن حصانه. وصعدت هي خلفه كي تدلّه على الكوخ.



Twitter: @ketab_n

قد عاد ليأخذ التي أحبها إلى قصره.

* * *

وقف باولو عند باب الكوخ يودع بنظرة حزينة فتاتيه الذاهبتين مع الأمير بعيداً عن باليرمو، بعيداً عن صقلية.

سميلا ممددة في العربة على ظهرها، وليديا قربها، وباخوس الكبير على حصانه، يمضي بمحاذاة العربة، وقد أحاطت به ثلةٌ من الفرسان. (خلال الشهور الماضية أقنع البابا ألا يرسل مفتشيه إلى الجزيرة).

على مقربة سارت عربة أخرى حمّلها باولو بجرار النبيذ هدية إلى الرجل الذي أنهى مآساته. (قال له أحد الجيران: الرجل يستحق النبيذ الذي حصل عليه، فهو أخيراً يحمل اسم الإله!)

الوقت فجر، وريح خفيفة تأتي من جهة البحيرة. وليديا التي تضع يدها على بطن سميلا المنتفخ، ترى البقع الحمراء التي تغطي وجه أختها، وتفكر أنها لم تعد تشبهها.

* * *

تلك الليلة، وحيداً تحت التعريشة، جلس باولو. كيف عبرت الشهور الماضية! الحرّ ثم المطر ثم الثلج. وكل



Twitter: @ketab_n

الفصول تعاقبت دون أن ينتبه لها. تأخر في انتزاع البطاطا من الأرض حتى جعلها الصقيع حلوة المذاق كالعسل، لا تؤكل. وفي السوق كانوا يشترون منه البيض ـ الفائض عن الحاجة ـ بنصف سعره دون أن يجادلهم. والعريشة فوقه نسي أن يشحل أغصانها وها هو اليباس اعترى أوراقها. وشجرة الخوخ التي وراء البيت ترك السوس يحفر جذعها. كيف عبرت الشهور الماضية؟

كان يقف في الباب ينظر إلى فتاته ممددةً على ظهرها، بطنها ينتفخ رويداً رويداً، وهي لا تتحرك. تحوّلت إلى ثمرة شمندر. وأختها تطعمها حساء الدجاج بالملعقة، وتشرّبها طاسة اللبن، وتثقب لها قشرة البيضة التي سحبتها لتوها من تحت الدجاجة، وتقلبها فوق فمها، بينما ـ بالسبابة والإبهام ـ تباعد بين الشفتين المتورمتين. (تورمت سميلا، انتفخت ككرش بقرة).

كان يهرب راكضاً إلى نبيذه. وعندما يصل إليه لا يلمسه. يتوقف كأن صاعقة ضربته. يركع ويصلّي. لا يحلم بعودة ذلك الرجل (يقولون إنه أمير، يقولون فردريك الأمبراطور كان عرّابه!)، فقط يصلّي أن تشفى ابنته، وهو عنده الحلّ: دير سانتا ماريا، فلتترهبا، فليجعلهما الربّ من نسائه!



Twitter: @ketab_n

كم مرة فكر في هذا الحل، ولم يجرؤ على تنفيذه. وكيف ينفذه؟ أليست الأولى عينه اليمنى، والأخرى عينه اليسرى؟ كيف يقلع الواحد عينيه بيديه الاثنتين؟ (ايتالو يقول إن هناك رجلاً يونانياً عاش قبل أن يولد المسيح، نام مع أمه دون أن يعرف أنها أمه، وكي يعاقب نفسه قلع عينيه!)

وها باولو قد قلع عينيه وأرسلهما مع رجل غريب، لكنه أمير ويقولون البابا يحبه، إلى بلاد بعيدة. (إيطاليا صحيح، لكن هل ايطاليا قريبة، بالنسبة إلى رجل أعرج، لا يستطيع المشي إلى السوق إلا متكئاً إلى بغله؟). يا ربّي، يا ربّي، يقول باولو المسكين.

تحت التعريشة، جالساً، لا يرى النجوم، لأن أوراق التعريشة الكثيفة (وكل تلك الأغصان التي لم يشذبها) تصنع بطانية معتمة فوقه. هجم باولو على قصبة طويلة مسنودة إلى جدار الكوخ (هذه القصبة جلبتها سميلا أو ليديا لتخريب بيوت العنكبوت التي غزت السقف) أخذها بيدٍ قاسية وطعن بها ـ صعوداً، كفتى أبله ـ تعريشة العنب. وعندما اكتشف أن القصبة لن تمزق هذه البطانية، من الأوراق والأغصان المتشابكة، تسلق السلم إلى سطح الكوخ، ثم سحب السلم إليه. وهكذا واقفاً على السطح في ضوء النجوم، حمل السلم من طرفه وهو يتوازن عند الحافة، وأهوى به فوق التعريشة، مرة، ثم أخرى ثم أخرى... بكل قوته، بكل



Twitter: @ketab_n

العنف المعبأ في عضلاته منذ أن غطّت البقع الحمراء ابنته (عينه اليمنى)، منذ أن طلع ذلك الكلام في الجزيرة عن إبنتيه (عينيه)، منذ أن ماتت امرأته (قبيحة صحيح، لكنه أحبها)، منذ أن وُلد. . .

بالسُّلَّم، معس باولو، ومزق، وحطم، تعريشته. (لقد زرعها هنا يوم وُلدتا ـ هما طبعاً، سميلا وليديا!)

كان هناك الجذع فقط، ما يزال سليماً، وملوياً عند حافة التعريشة، حيث يتقاطع عمودا سنديان (بيديه قطع هذه العواميد، وجاء بها من الغابة، وغرز أربعةً منها في التراب، ثم صنع من أربعة أخرى جوانب سقف التعريشة). الجذع ظل سليماً، لأن السلم لم يكن يصل إليه، فانظروا كم كانت التعريشة كبيرة وذات قيمة. إنها كانت أكبر من كوخه!

خبط باولو الجذع بالسلم، قذفه عليه. ارتطم السلم بالجذع، كسره، وسقط معه أرضاً. انهار باولو فوق سطح كوخه، ونام. (كيف سينزل عن السطح الآن؟) طبعاً، الجميع يعلم، أنه من ذلك النوم استيقظ (قال إنه تمنى ألا يستيقظ، قال إنه أحس أنه لن يستيقظ، فلماذا يستيقظ وقد خسر كل شيء؟)، لكن شيئاً هائلاً حصل قبل أن يفعل ذلك (قبل أن يستيقظ ويقفز عن السطح ويلوي كاحله الصحيح!)،



Twitter: @ketab_n

فماذا حصل في تلك الليلة؟

نام باولو مبللاً بالعرق، كأنه يغرق في الوحل عند ضفة البحيرة. (وحل طبعاً: السقف تراب، والعرق ماء، ماء زائد تراب يساوي وحلاً، صح؟). وفيما هو نائم (والجزيرة كلّها نائمة، والعالم كلّه نائم، إلا ناس القصور طبعاً، حيث الشموع والرقص حتى الفجر ـ في قصر من تلك القصور تعيش سميلا وليديا الآن!) أحس بشيء يلمس عينيه. كان شيئاً رطباً، والتصق بعينيه كلسان ضفدعة، لكن باولو لم يفزع.

يقول باولو إنها نامت معه.

فتح عينيه فرأى زوجته. قالت إنها كانت تراقبه من تحت وهو يحطم تعريشة العنب، فخافت أن يحصل له مكروه وجاءت لتقضي الليلة معه.

وقبل أن تصعد نجمة الصباح إلى السماء سألها لماذا انتظرت حتى الآن لتأتي إليه. وسألها كيف لم تفكر في المجيء إليه طوال السنوات الماضية. (أكثر من عشر سنوات يا امرأة، ولا تفكري في المجيء إلى زوجك، إلى باولو!).

يقولون إنها حزنت لكلامه وبكت، وقالت إنها فكرت



Twitter: @ketab_n

أنه لم يعد يحبها لأنها ليست جميلة مثل سميلا وليديا. (ان ـ ان ـ ان. كررك ـ كررك ـ كررك!)

فانظروا كيف رجعنا إلى إطلاق القصص في بطن جزيرتنا، والمأساة بالكاد غادرتنا! ها نحن نخترع لباولو علاقة بشبح زوجته كي تسمعها أوروبا كلّها وامبراطور الصين وبابا روما؟ (ما هذه المصائب!)

أما باولو المسكين فبات وحيداً كالكلب المصاب بالجرب. دود القزّ عنده يخرج من بيوضه ليشم رائحة الحزن ويموت. لا يقرب ورق التوت، كأن درجة الحرارة تجاوزت الخمسين، كأن النار تشتعل تحت أطباقه المصنوعة من الوزال والتبن وزبل البقر. تخرج الديدان إلى العالم فوق أطباق باولو، فقط لتكتشف أن سميلا وليديا ما عادتا هنا، ثم تجمد عند زوايا الأطباق، تتكوم فوق بعضها بعضاً ـ كالدجاجات الغبية في سخونة الصيف تتكوم في زاوية القن وتخنق بعضها ـ وها هي رويداً رويداً يعتريها الذبول كأوراق شجرة بلا ماء، يتحول لونها إلى الأصفر ثم تذوب. لماذا تعيش بعد الآن، لماذا تأكل التوت خمسين يوماً، لماذا تتسلق الوزال، تلف نفسها في الشرانق على صليب تنسجه بخيط حرير واحد تبصقه من فمها، والخيط يدور حولها من الخارج إلى الداخل، نراها عبر نسيج الحرير الشفاف تتلاشى تحت الطبقات التي تنسجها الواحدة تحت الأخرى، حتى



Twitter: @ketab_n

تختفي أخيراً، وفي داخل شرنقتها البيضاء تتحوّل إلى زيز أسود، ثم تسقط قشور الزيز وتتحوّل إلى فراشة، تحرك أجنحتها وتخرج قطرة أسيد من فمها، قطرة واحدة تكفي كي تصنع ثقباً في جدار الشرنقة وتخرج إلى الضوء والهواء. لماذا تفعل ذلك بعد الآن؟ (أصلاً كنا ننزع الشرانق عن الوزال، قبل أن تتحول الزيزان إلى فراشات، لنرمي بها في الخلاقين ونحلّ خيط الحرير ـ طبعاً لا ننتظر تحول الزيزان إلى فراشات، وإلا أعطبت، بقطرات الأسيد، نسيج الشرنقة، ومزقت الخيط الثمين بخروجها عبره!) لماذا تأكل الورق الأخضر الشهي المفروم ناعماً في الأيام الأولى، ثم خشناً في الأيام اللاحقة!) لماذا تكلف نفسها هذا الجهد، وسميلا وليديا ما عادتا هنا! ورائحتهما تلاشت وحلّت مكانها رائحة غيابهما. (أيام كانتا ما تزالان هنا، كان الأب باولو يدخل أحياناً، ليساعدهما في حمل الأطباق إلى جهة الظل، فتتوقف الديدان عن الأكل فوراً، ويصيبها الفزع إذ تشم رائحته!)

أوه، ماذا يفعل باولو المسكين بنفسه الآن؟ حتى كرمته (لديه، غير هذه التعريشة التي قضى عليها، كرم عنب صغير في سفح جبل اتنا)، حتى كرمته يبست (ألا تحب العناقيد يديه لطول ما اعتادت أيدي سميلا وليديا!) فكيف يصنع لنفسه نبيذاً يساعده على النوم واحتمال أحزانه ووحدته؟

أوه، ماذا يفعل باولو المسكين بنفسه الآن؟ أحياناً



Twitter: @ketab_n

يمضي عبر كرمه ويتسلق جلول الزيتون، ويصعد الجبل حتى قمته. من هناك يرى المياه التي تفصل جزيرتنا عن إيطاليا(*).

يقف حتى غياب الشمس، يرى المياه تتحول من الأزرق إلى الأبيض إلى الرمادي إلى الأسود. وأحياناً يرى ضوءاً يعبرها. إنه قارب بالتأكيد، وهذا ضوء شموع معلقة فوقه. على قارب مثل هذا تمددت ابنته سميلا في ليلة رحيلها. (بطنها منتفخة، وليديا قربها، وفي مقدمة القارب وقف ذلك الأمير).

أوه، ماذا يفعل باولو المسكين بنفسه الآن؟

يستدير ويهبط الجبل إلى كوخه. يفرش طراحة قدّام الباب ويتمدد على ظهره ويحدّق إلى النجوم. (لا تعريشة بعد الآن تحجب عنه نجومه).

وهكذا يبقى، عيناه مفتوحتان، حتى تطلع نجمة الصباح(**)، ويبدّد شعاعٌ أبيض مشهد النجوم.

---

(*) مياه مضيق مسينا.

(**) هي كوكب الزهرة. الكوكب الذي يحمل اسم إلهة الحب، والذي جعله بطليموس في الدائرة الأقرب إلى الأرض (بعد دائرتي القمر وعطارد). يُسمى أيضاً نجمة المساء، فهو يظهر في سماء الصباح أو المساء، ساطعاً بنُقبة لونية فضية.



Twitter: @ketab_n

# الجزء الثالث

# القصر (ثلاثة أسئلة)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

## السؤال الأول

ـ أريد أن أعرف شيئاً واحداً فقط: هل أنا مجنون؟

في البداية كان القصر حصناً. في الطابق الأسفل منه كانت البئر، تتوسط سبعة مخازن ضخمة. خمسة منها للأسلحة والعتاد الحربي الثقيل اللازم لمقاومة أي حصار مفاجىء وطويل الأمد. وإثنان للطعام (فكر في كل شيء: اللحم المقدد، الخضار المجففة، أنواع الحبوب، أكياس الملح، جرار الزيتون والزيت والنبيذ، وطبعاً أوعية العسل(*)). الطابق الأعلى مزوّد بالنوافذ الطويلة، يسمونها «طاقات»، منها تُقذف السهام على العدوّ المهاجم، وهنا تُربى أنواع الطيور أيضاً (الدجاج والحمام. والبط أحياناً ـ إذا

(*) أوروبا لم تعرف السكر ـ المستخرج من قصب السكر ـ إلا لاحقاً.



Twitter: @ketab_n

توفر حوض مليء بالماء). أما الطابق الأوسط فللسكن. هنا القاعة الفسيحة؛ وغرف النوم الموزعة حولها في دائرة؛ ومتاهة الممرات التي تأخذك إلى أبواب مخادعة تفضي إلى الفضاء والسقوط القاتل في الخندق المحيط بالحصن (خندق كالمستنقع يجلب البعوض من أقصى أوروبا، غير أن جيشاً من الضفادع يقيم على جانبيه، يمنع هذه الحشرات الناقلة للأمراض من عبور البوابة الضخمة إلى داخل الحصن)؛ وغرفة الصلاة الصغيرة الواقعة أقصى الشرق (فيها مذبح صغير، وصليب خشبي، يُقال إنه من الأرض المقدسة، يرشح زيتاً!). وفي الباحة كانت المواقد، القدور فوقها ليلاً نهاراً، وأنواع الطرائد (غزلان، خنازير، طيور برية). وفي الطرف البعيد كانت المطابخ حيث يوضع الحليب لتحضيره وتحويله لبناً أو جبناً. (أين الزرائب؟ في الجانب الآخر، قرب غرفة صانع الأحذية المجاورة لغرفة الاسكافي ـ الذي يمنع عليه صناعة الأحذية وإلا قُطع رأسه، فالاسكافي يُصلح الأحذية ولا يصنعها!)

الليل كان للشموع كي تضيئه. وفي القاعة التي تتوسط طابق السكن، كان السيد الكبير يجلس محاطاً بالفرسان والنبلاء، يقتعدون الطراريح أو الكراسي الخشبية الثقيلة. يلعبون الشطرنج، يشربون النبيذ شتاءً، والجعة ـ المحفوظة في براميل الخشب في المغاور ـ صيفاً، ويأكلون البيض



Twitter: @ketab_n

والسمك وأنواع الفواكه والخضار نهار الجمعة، وكل شيء في الأيام الباقية.

الآن لم يعد القصر حصناً. السور الذي كان يحيط به تهدم، و«الطاقات» التي كانت تطوّق طابقه الثالث تحوّلت بيوتاً لأصناف الحمام (حمام مالطي، حمام قطاوي كبير، حمام زاجل ريشه قصير منفوش حول الرقبة، ويمام برّي منقط بالرمادي عيونه لا تتوقف عن الحركة)، والخندق المليء بالمياه الآسنة رُدم بالتراب وتحوّل بستاناً تملأه أشجار الفاكهة.

قصر باخوس الكبير، أمير هذه المزارع التي تمتد حتى الأفق، سهول ايطاليا التي تنتج من الخضار والحبوب ما يبلط البحر المتوسط ذهباً.

لكن الرجل حظه سيّء.

عاد من رحلته الأخيرة بامرأة حمراء كالشمندر، ماتت بينما كانوا ينزلونها عن العربة، وبينما هي تموت ولدت صبياً، وأختها كانت قربها.

هذا الصبي، ذات يوم، سوف يرث هذا المجد كلّه، مجد باخوس الكبير: هذا القصر والقصور الأخرى، والمزارع والأقنان والماشية والفرسان والسماء والأرض وما



Twitter: @ketab_n

عليها. كلّها لهذا الصبي الذي سُحب من رحم امرأة ميتة.

أخذ الأمير أختها زوجةً كي تربي له إبنه، في شهرين تحوّلت الزوجة إلى أسمن امرأة في المملكة. يقولون إنها ما عادت قادرة على الحركة. (طوال النهار تأكل، وفي الليل تغادر غرفة النوم إلى المطبخ. وأحياناً تضيعها الحاشية، فيجدها الحراس في الطابق السفلي وقد فتحت مخزن الطعام!)

لونها بدأ يتحوّل إلى الأحمر. من الحرارة التي تصدر عن جسمها تذبل الورود في حوض نافذتها. العرق يسيل منها ويتبخّر. شعرها يتساقط في خصلٍ كلما استحمت.

المعلم إيسيدور يقول إن كبير الآلهة عند اليونان زيوس (اليونان الأقدمين طبعاً) تزوج امرأة فأحرقها بناره الإلهية. ومنها خرج ابنه ديونيسوس، إله الخصب والأرض والخمر. هل أميرنا مثله؟

ـ هل أنا مجنون؟

يصمت المعلم ايسيدور، لا يقول شيئاً. قبالته الأمير باخوس الكبير، بينهما رقعة الشطرنج بحجارتها المصنوعة من العاج الأفريقي، وحولهما الماء والشجر وصوت الطيور والغابة القريبة. عما قليل يتعالى نقيق الضفدع من البركة



Twitter: @ketab_n

الأميرية المبلطة بالصدف البحري.

ـ هل أنا مجنون؟

المعلم إيسيدور في الثمانين من عمره ـ يقول إن الرهبان أعطوه هذا الاسم لعله يكبر ليكون عالماً مؤمناً كايسيدور الاشبيلي الذي ألّف في القرن السابع للميلاد عشرين كتاباً هي أقدم دائرة معارف لاتينية ـ يعرف اللاتينية واليونانية والعربية والسريانية. متبحر في الفنون السبعة الحرة (النحو والبلاغة والجدل والموسيقى والحساب والهندسة والفلك)؛ مالك مجموعة من أهم مجموعات الكتب في أوروبا (من أندر الكتب في مكتبته: النسخة المصححة للترجمة اللاتينة للكتاب المقدس التي أنجزها الانكليزي ألبينوس الكوين في دير سانت مارتن بمدينة تور سنة 801م وأهداها إلى الامبراطور شارلمان، موسوعة جوستنيان العظيم ـ أمبراطور الدولة البيزنطية (527 ـ 565) ـ الواقعة في خمسين كتاباً والحافظة للقانون الروماني؛ «تاريخ» روبرت تورجني المتوفى في دير سانت مايكل سنة 1186 والذي يحاول فيه كتابة تاريخ العالم منذ بدء الخليقة وحتى القرن الثاني عشر...)؛ وأهم لاعب شطرنج في أوروبا وآسيا (يستطيع أن يلعب طوال أيام بعينين مغمضتين، دون طعام، دون شراب، ودون نوم، ويُقال إنه خسر مرة واحدة فقط، لأسباب لا علاقة لها بمهارة خصمه).



Twitter: @ketab_n

المعلم إيسيدور يسمع الآن سؤال الأمير باخوس الكبير (هو الذي ربّاه وعلّمه، وقبله علّم أباه، وغداً قد يعلّم ابنه)، ولا يقول شيئاً، وينظر إلى الشموع المعلقة من العواميد فوقهما، ويتبين النجوم غائمة في السماء. (بدأ بصره يضعف منذ سبع سنوات).

ـ هل أنا مجنون؟

يتقدم باخوس الكبير بحصانه، ويهدّد بيدقاً من بيادق المعلم إيسيدور.

يقول المعلم:

ـ أنت مجنون كما الإنسان. لا أكثر ولا أقل.

يرجع باخوس الكبير إلى الخلف في كرسيّه الضخم. يتقدم المعلم ايسيدور بوزيره لحماية البيدق المهدّد.

يقول باخوس الكبير إنه لم يفهم.

يقول المعلم ايسيدور:

ـ بيبين، الابن الثاني للأمبراطور شارلمان، سأل معلمه ألكوين مرة: ما مركز الفرد في هذه الحياة؟

صمت المعلم. عرف باخوس أنه ينتظره. مال فوق الرقعة وتراجع بحصانه إلى موضعه السابق. (ها هو قد خسر ـ كالأحمق ـ نقلتين ثمينتين!)



Twitter: @ketab_n

تقدم المعلم بقلعته، هدّد ملكة باخوس، قال:

ـ هل تعرف ماذا كان جواب المعلم ألكوين؟

قال باخوس إنه لا يعرف شيئاً (مرض سميلا وموتها، ثم مرض ليديا واقترابها السريع من الموت، جعلاه يدوخ!)، وتقدم بفيله ليهدد قلعة المعلم المتقدمة.

قال المعلم:

ـ مركز الفرد في هذه الحياة كمركز هذه الشمعة فوقك في مهب الريح. والآن كشّ ملكك! (بالقلعة الأخرى هدّد المعلم ملك باخوس بالموت المحقق).

عرف باخوس أنه قد قضي عليه. وفي تلك اللحظة خرجت ريحٌ من الغابة، وأطفأت الشموع.

* * *

عندما بلغ الأمير أوفيد السابعة من عمره بدأ المعلم ايسيدور يلقنه أصول اللاتينية واليونانية (في تلك العصور كان كبار المتبحرين في اللاتينية لا يعرفون شيئاً من اليونانية، وكانوا للوصول إلى أرسطو أو هيراقليطس أو أفلاطون ـ أو حتى هوميروس ـ يضطرون للجوء إلى ترجمات عربية أو عبرية، أو إسبانية عن العربية والعبرية!).



Twitter: @ketab_n

وقبل أن يبلغ الأمير أوفيد السادسة عشرة مات المعلم إيسيدور بعد أن تجرع قارورة سم. (تلك الليلة، ليلته الأخيرة، استيقظ بعد ساعة نوم واحدة فاكتشف أنه قد تبول في ثيابه، وعلى شراشفه. كل الكتب التي قرأها، كل السنوات التي عاشها ـ منذ سنوات قطع التسعين ـ كل الخبرات والمعارك والمعارف والمخطوطات، لماذا لم توصله إلا إلى هنا؟

تساءل وهو يترك فراشه إلى صندوقه الموضوع في الزاوية: أية لذة حصلت عليها في هذه الحياة؟

فكر في أوفيد، ليس الشاعر القديم الذي أحبه منذ قرأه للمرة الأولى قبل سبعين سنة، في قرية صغيرة تقع شمالي نابولي، بل أوفيد الصغير الذي يعلمه منذ سنوات؛ منذ كم سنة؟ 12 أم 13 أم 14؟

ما الفرق؟ فقط خلال هذه السنوات الأخيرة عرف بعض اللذة. اللذة؟ السعادة؟ الفرح؟ الكلمات لا تقول شيئاً. لا تصف إلا صورة الحقيقة، لكن الحقيقة ذاتها، كيف نصفها؟ التمثال غير الإنسان، الكلمة غير الشيء الذي تريد قوله. هذه السنوات الأخيرة أعطته البهجة اليتيمة في حياته. أوفيد لم يعد صغيراً، لكنه ـ عنده، عند معلمه ـ صغير إلى الأبد. أية دودة كتب! والضوء في عينيه! أية روح كبيرة في



Twitter: @ketab_n

هذا الجسد المريض! والخطّ الجميل ليده! وسرعة خاطره! في العتمة شق المعلم ايسيدور طريقه إلى صندوقه، فتحه، أزاح كتاب «المجسطي» (في الترجمة الاسبانية) للفلكي المصري بطليموس (القرن الثاني للميلاد)، أخرج القارورة من تحته، جلس على حافة سريره، وفتحها. عبر النافذة المزودة بشبك لصدّ الحشرات رأى غيوماً تعبر الأفق. كانت النجوم محتجبة لكن القمر كان ظاهراً في أقصى الشرق. فاحت رائحة صعتر برّي. (أمطرت عند العصر بغزارة، ثم توقفت مع حلول الظلام). جاءت فراشة وحطّت على شبكية النافذة، من الجهة الخارجية، والتصقت بها. قلب المعلم إيسيدور القارورة فوق فمه. فكر في سقراط. ابتسم: ذلك الرجل أعطاه الربّ أن يموت قبل أن يتبول في ثيابه!)



Twitter: @ketab_n

## السؤال الثاني

ـ من هي أمي؟ ما اسمها؟

عندما بكى (كان في السادسة) لموت أمه ليديا، قالت له إحدى المربيات إنها ليست أمه بل خالته.

ـ من هي أمي؟ ما اسمها؟

المعلم إيسيدور حاول أن يشرح له. (إنه الآن في الثامنة):

ـ داخل المرأة يوجد وعاء. يأتي الرجل ويضع فيه بذرة. كيف وضعنا بذرة في الحوض الصيف الماضي، الشيء ذاته يفعله الرجل مع المرأة. من البذرة في الحوض نمت شتلة الحبق، من البذرة في وعاء المرأة ينبت طفل. هذا الوعاء نسميه الرحم.



Twitter: @ketab_n

ـ وهو يكون مليئاً بالتراب؟

ـ لا، بل بالماء. أتذكر ما أخبرتك إياه عن اللوتس الذي ينمو فوق البحيرات والأنهار؟ كذلك في رحم المرأة. المهم أن تعرف من هو الأب، وهذا تعرفه جيداً.

ـ لكني أريد أن أعرف من هي المرأة التي زُرعت فيها؟ كنت أظن أني أعرفها، عندما ماتت قالوا ليست هي، قالوا أختها. أريد أن أعرف.

قال المعلم:

ـ إسمع: زيوس عندما ماتت امرأته أخرج طفله منها وزرعه داخل فخذه حتى صار راشداً ثم أطلقه. قد أخبرتك هذه القصة سابقاً. أعطيك مثلاً آخر: هناك نوع من الضفادع قد يلجأ فيه الذكور إلى حمل البيوض على أطرافهم الخلفية أو حتى في كيس الهواء داخل فمهم حتى يحين وقت التفقيس ـ هل تعرف هذا؟

قال الأمير أوفيد بحزن:

ـ هذه الكلمات لا يجب أن أسمعها من فمك. هذه الكلمات يقولها أبي لأسكُتْ.

* * *



Twitter: @ketab_n

في الحادية عشرة من عمره قرأ الأمير أوفيد اسطورة ديونيسوس، فقال لمعلمه:

ـ أريد أن أنزل، مثله، إلى العالم التحتي، وأجلب أمي.

ـ العالم التحتي موجود في الرأس، أجابه المعلم إيسيدور؛ ثم تابع: ولا تخرج جثةٌ من رأسٍ!

ـ لكن من هي أمي؟

ظل باخوس الكبير صامتاً.

* * *

ـ من هي أمي؟ هل تعرف اسمها؟

وقف توكا باسماً يلعب بخنجره. البارحة احتفل القصر ببلوغ الأمير أوفيد الخامسة عشرة. هذا الصباح قال توكا لصديقه الأمير.

ـ أما زلت تفكر في حكاية خالتك وأمك؟

من نبرة صوته، عرف الأمير أن توكا قد اكتشف شيئاً.

ـ هل تعرف لماذا يسمون أباك باخوس الكبير.؟ سأله توكا.



Twitter: @ketab_n

ظل الأمير أوفيد صامتاً. (ما يعرفه عن وزن أبيه وطوله وحدود إمارته ليس الجواب. بالتأكيد. يعرف من ابتسامة توكا أن الجواب ليس هذا الذي يعرفه. فالأفضل إذاً أن يبقى صامتاً).

قال توكا هامساً:

ـ أعتقد أنك قد فهمت. (وأشار بإصبعه إلى حوضه).

* * *

قال توكا:

ـ كانتا تسكنان مع أبيهما في جزيرة صقلية. لا أحد يستطيع التمييز بينهما. الأولى سميلا، الأخرى ليديا. الأولى أمك، ولدتك بينما كانت تموت، الأخرى خالتك التي تُعرف بالبدينة، في صقلية يتحدثون حتى الآن عن جمالها. الأب، اسمه باولو، مات بعد رحيلهما بسنتين. يقولون مات حزناً. يبدو أن والدك منعه من المجيء إلى هنا لزيارتهما. اسألني لماذا جاءتا معاً إلى هنا؟ يقولون إنهما معاً وقعتا في غرام أبيك. يقولون نام معهما سويةً عندما رآهما لأول مرة. كانتا تستحمان في البحيرة، يقولون كانتا تحبان...

قال أوفيد إنه يريد أن ينام، إنه متعب من حفلة البارحة، إن صدره يوجعه من السعال...

أخرج توكا من ملابسه رقاقاً ملفوفاً بعناية:



Twitter: @ketab_n

ـ خذْ، هنا مكتوب كل شيء. رجل يعيش هناك يُدعى ايتالو، أصله من إشبيلية في أسبانيا، منفي إلى صقلية، كتب تاريخ الجزيرة ثم مات. لا أعطيك إياه لأنه عن أمك فقط، وإنما كي تنسخه، لأنه أجمل من الكتب التي تعيرني إياها، وبعد أن تنسخه أعده إلي.

* * *

جلس أوفيد يقرأ الرقاق. لمحه معلمه إيسيدور. سأله ماذا يقرأ.

ـ لا شيء، أجابه، رسالة من توكا.

بعد أن انتهى من قراءته أحرقه. فكر أنه هكذا يحرق إلى الأبد كوميديا باولو التراجيدية.

لم يعرف أن لدى توكا نسخة أخرى.

* * *

ـ هل أنتِ أمي؟

كانت ترتدي قميصاً أبيض وثوباً زهرياً يغطي كاحليها رفيعة كالغصن، عيناها كبيرتان، لمعة السواد فيهما رائعة.

ـ كيف عرفتني؟ سألته.

ـ قرأت عنكِ في كتاب.

ـ من كتبه؟



Twitter: @ketab_n

ـ رجل من جزيرتكم. يقولون اسمه ايتالو

ـ إنه خَرِفَ أعمى، يحب المبالغات. وعندما يطلق نكتة تافهة يضحك كالمجنون. لا أحد كان يحبه.

ـ لكنه وصفكِ جيداً!

ـ هذا مستحيل. لا بد وأنك تتحدث عن أختي!

* * *

سأل معلمه:

ـ ماذا تقول الكتب عن الكوابيس؟

أجابه ايسيدور الذي منذ فترة يشعر بالضيق:

ـ أنها تشبه الحياة.

ـ والأشخاص الذين يأتون إلينا في الكوابيس، أين يعيشون خلال النهار؟

قال ايسيدور عابساً:

ـ إنك تقرأ كتباً لا يجب أن تقرأها!

* * *

ـ أنتِ قتلت أمي، فركتِ جسمها بالسم وهي نائمة، كي تأخذي منها أبي، أليس كذلك؟



Twitter: @ketab_n

ـ كيف عرفت؟ من أخبرك؟

ـ عرفت من كتاب.

ـ كتاب عني.

ـ لا، كتاب عن طعام الحيوان وطباعه. يقولون إن الحيوان عندما يشعر بألم في داخله يُقبل على الطعام بشراهة. ومعلمي قال لي إن قابيل بعد أن قتل أخاه هابيل داخ في الأرض تائهاً من الوجع في صدره.

* * *

على ضوء الشمعة، جلسا يلعبان الشطرنج.

ـ قلْ لي توكا، هل ترى كوابيس مرعبة؟

ضحك توكا وهو يتقدم ببيدق:

ـ أعرف أني لم أرَ كوابيس غير مرعبة!

* * *

ـ من هي أمي؟

هذه المرة كان الربّ يسوع المسيح هو الذي جاء إليه في المنام.

ـ أنت قلْ لي يا أوفيد، أنا من هي أمي؟



Twitter: @ketab_n

## السؤال الثالث

ـ لماذا ضرب أبي (باخوس الكبير) دانتي اليجييري؟

هذا السؤال يدور في رأس أوفيد منذ فترة. تحديداً منذ شهرين، فمنذ شهرين جلب له توكا هذه القصة:

ـ يقولون إن دانتي، هذا الشاعر الذي أنت مهووس به هذه الأيام، جاء إلى هنا، إلى قصر أبيك، قبل موته بسنوات. لماذا جاء إلى هنا لا أعلم؟ أحدهم قال لي إنه كان يعرف معلمك إيسيدور، لعله الآن في الجنة يشرب اللبن والعسل ليزيل طعم السم من حلقه. المهم، أين كنت؟ يقولون إن والدك تشاجر مع هذا الرجل دانتي وشتمه وصفعه، أتصدق؟ أغلب الظن حصل هذا قبل ولادتك، أو أيام كنت ما تزال طفلاً رضيعاً!



Twitter: @ketab_n

والقصة ـ كما سيعرف أوفيد من آخرين ـ صحيحة. لكن أحداً من هؤلاء (جميعهم بارزوه في الشطرنج وخسروا) لا يعرف السبب الذي جعل باخوس الكبير يشتم دانتي اليجييري. (حتى خطيبته ماريا سألها!)

طبعاً لا يستطيع أن يذهب ويسأل أباه المريض عن شيء كهذا. أغلب الظن ما عاد يتذكر. (الذين شتمهم وضربهم في هذه الحياة لا أحد يستطيع عدّهم. هذا إذا لم نتكلم عن الذين قطع رؤوسهم!)

لا بدّ له وأن يعرف الحقيقة بنفسه: ليجعل من هذا اللغز لعبة له، يتسلى بها، كما كان معلمه إيسيدور يتسلى بفك ألغاز اللغات. (قال له معلمه إيسيدور إنه تعلم اللغة العربية بمفرده، في سنة واحدة، على هذا النحو: جلب كتاب الإسلام المقدس ـ يسمونه القرآن الكريم ـ حصل عليه في أصله العربي من قرطبة في أسبانيا، ثم باع بيتاً وكرماً كان يملكهما قرب فلورنسا وابتاع بالثمن الذي قبضه نسخة من القرآن في ترجمة لاتينية أنجزها روبرت الشستري(*) في سنة 1144 ميلادية، وأخذ يقرأ النسختين ويقارن بينهما كلمةً كلمةً!)

---

(*) Robert of chestert (أول من ترجم القرآن إلى اللاتينية. من ترجماته الأخرى، عن العربية، كتب للخوارزمي في الرياضيات وعلم الفلك).



Twitter: @ketab_n

لماذا يضرب إنسانٌ ما (أي إنسان) إنساناً آخر؟ كي نفهم هذا علينا أن نفهم هذين الإنسانين.

أولاً. لنفهم باخوس الكبير، من هو هذا الرجل؟ إنه أبي طبعاً (هكذا يفكر الأمير أوفيد، وهو يدور ماشياً في غرفته، وقد هبط الليل، وحل السكون في القصر ـ قبل سنوات كانت الجلبة تستمر حتى الفجر. لكن منذ أن مرض باخوس الكبير تبدل كل شيء!)، لكن ماذا يعني هذا؟ منذ سنوات يزوره المشعوذون، ليسألهم السؤال ذاته: من أنا؟ وهل أنا مجنون؟

هو نفسه لا يفهم نفسه، فكيف أفهمه أنا؟ حتى معلمي إيسيدور لم يكن يفهمه. ذات مرة قال لي:

ـ اسمع يا أوفيد، والدك لم يقرأ في حياته كتاباً واحداً. هو أصلاً لا يفك الحرف. لكنك واجدٌ في داخله كل كتب العالم التي كُتبت، والتي سوف تكتب.

توكا يقول إن والدي أعظم أمير عرفته إيطاليا في تاريخها. صحيح أنه لم يحكم إيطاليا، ولم يسيطر على أوروبا، ولم يغزُ البحار، لكن في النهاية، قطعة أرض زائدة أو ناقصة، ما قيمتها؟ انظرْ مثلاً قصصه مع النساء، يقول توكا. هذا أبلغ دليل. وكيف يعرف المحتال من الصادق



Twitter: @ketab_n

بنظرة واحدة، بضربة سيف واحدة؟ يقول توكا: «باخوس الكبير».

ونضحك معاً إذ يضخم حروف كلمة «الكبير» وهو يشير إلى...

ربما كان الحق مع توكا. ربما لا أحد يستطيع فهم أبي إلا إذا فهم رغبته العظيمة هذه في النساء. (قبل مرضه، يقولون، كان لا يتوقف عن...)

يقول توكا إن أبي يشبه الأمبراطور فردريك الثاني في غرابة أطواره. يخبرني:

ـ هل كنت تعلم أنه (يقصد فردريك الثاني) أمر مرة بحبس رجل في غرفة موصدة باحكام وتركه هناك حتى مات جوعاً. أراد أن يبرهن ـ بتلك التجربة ـ أن الروح تموت مع الجسد. إذ لو أنها لم تمت لكانوا وجدوها في الغرفة الموصدة. هل تصدق؟

ضحك أوفيد (هذه الحكاية هو أخبرها لتوكا قبل سنتين) ثم قال له كاذباً:

ـ تريد تجربة أغرب. ذات مرة جعل رجاله يُغرقون رجلاً في الماء ليرى كم ثانية يستطيع الواحد أن يبقى في الماء قبل أن يموت.



Twitter: @ketab_n

قال توكا:

ـ أعرف عن هذه التجربة.

ابتسم أوفيد (دائماً يوقعه في كمائن كهذه!)

يقول لي توكا:

ـ إسمع أوفيد، أريد منك خدمة، ليس خدمة بل كتاباً، مسرحية، فرنتشسكا طلبت مني أن أطلب منك.

أقول:

ـ البارحة انتهيت من نسخ «اوديبوس ملكاً» سأعيرك إياها.

يسألني:

ـ والكوميديا، ما اسمها، الجحيم؟

أجيبه:

ـ سأبدأ بنسخها بعد أسبوعين، أريد أن أقرأها مرتين بعد، ثم أضع هوامش ثم أنسخها.

يسألني:

ـ وهل عرفت لماذا ضرب والدك دانتي آنذاك؟

* * *

ـ لماذ ضرب أبي دانتي؟



Twitter: @ketab_n

ربما فهم دانتي يجعلني أعثر على السبب. ماذا أعرف عن هذا الشاعر؟ لقد مات ليلة 14 أيلول 1321 مصاباً بحمى الملاريا، التقطها بينما يقطع منطقة من المستنقعات قرب رافنا في فلورنسا. ولد سنة 1265. هذا يعني أنه مات عن 56 سنة. «الكوميديا» بدأ كتابتها سنة 1312 أو 1313، لا أحد يعلم متى. من المؤكد أنه انتهى من الجزء الأول منها ـ «الجحيم» ـ سنة 1314. ومن الجزء الثاني «المطهر» انتهى في حدود 1316. أما الجزء الأخير «الفردوس» فانتهى منه قبل سنة واحدة من موته. وفي تلك السنة نُشرت «الكوميديا» بأجزائها الثلاثة (هذه النسخ مفقودة).

النسخة التي بحوزتي واحدة من أقدم نسخ «الكوميديا». نسخها إسحاق الروماني سنة 1335. (هي من تركة معلمي ايسيدور لي). على الصفحة الأولى منها كتب التعليق التالي: «أجمل نشيد قرأته في حياتي».

بعض الصفحات زاد الناسخ عليها هوامش من تأليفه. عَقَدَ مقارنات مع أريستوفان اليوناني، من القرن الخامس قبل الميلاد، وأوصى بقراءة مسرحيته الشهيرة «الضفادع». تباً لإسحاق الآن، أريد التفكير في دانتي: أحب في صباه فتاة في التاسعة من عمرها، اسمها بياتريس. لم تحبه، تزوجت رجلاً آخر. ظل يحبها حتى مات، وفي «الكوميديا» خلّدها بأن جعلها ملهمته.



Twitter: @ketab_n

توكا يسخر منه، الجميع يسخرون(*) منه. يقول توكا:

ـ وضع الجميع في جهنم، ونزل ليمزح معهم. أهذا ما تسميه أدباً؟

قرأت لماريا ـ في الأسبوع الماضي ـ بعض المقاطع من «الجحيم»، أحبتها. (خصوصاً ذلك المقطع، الأنشودة الخامسة، فرنتشسكا وباولو).

قلت لتوكا:

ـ سأنسخه لزوجتك فرنتشسكا؟

سألني:

ـ لماذا؟ ما المميز فيه؟

أخبرته:

ـ عندما كان دانتي في العشرين من عمره، كان ذلك حوالي 1285، حصلت حادثة فظيعة في ريميني على ساحل الأدرياتيك. امرأة تدعى فرنتشسكا، جميلة جداً، وقعت في غرام رجل وسيم يدعى باولو، وكانت في طريقها إلى الزواج منه عندما خدعتها عائلة باولو وأجبرتها على الزواج من أخيه جانتشوتو، القبيح المشوه. المهم تزوجته وأنجبت له طفلة

(*) لن تعترف فلورنسا ـ وإيطاليا والعالم ـ بقيمة «الكوميديا» إلا لاحقاً.



Twitter: @ketab_n

لكنها ظلت تحب باولو. وذات مرة بينما جانتشوتو غائب في رحلة (إنه يشغل وظيفة عمدة ويتنقل كثيراً) جلست فرنتشسكا مع باولو، يقرآن في كتاب قصة تشبه قصتهما، قصة الملكة جينفر ـ زوجة الملك آرثر ـ والفارس لانسلوت الذي يحبها وتحبه. وعندما وصلا في القراءة إلى اللحظة التي يقبل فيها لانسلوت جينيفر في ضوء القمر، مال باولو على فرنتشسكا وقبلها. وفي تلك اللحظة دخل زوجها جانتشوتو. أراد أن يضرب أخاه باولو بالسيف، فحاول الأخير الهرب منه، لكن كمّه الفضفاض علق في مسكة الباب. فأسرعت فرنتشسكا لتقيه من طعنة وجهها إليه جانتشوتو في تلك اللحظة...

قاطعني توكا هازئاً:

ـ فدخل السيف فيها.

تابعت:

ـ صحيح، وفي باولو أيضاً. ماتا معاً. وفي «الجحيم» رآهما دانتي، فحكت له فرنتشسكا قصتها هذه.

ضحك توكا:

ـ لكن ليس عندي أخوة لتستفيد زوجتي من هذه القصة. أم أنك تفكر في أن تكون أنت...

* * *

كان دانتي يحب السياسة، ويشتغل في الأحزاب. لهذا



Twitter: @ketab_n

صنع الكثير من الأعداء. وفي أدبه أخذهم جميعاً ـ كل هؤلاء الأعداء(*) ـ إلى جهنم. (أخبرني معلمي إيسيدور: «لا يصنع الأعداء لنفسه من يشتغل في السياسة. بالعكس السياسي المحنك لا يصنع إلا الأصدقاء لأنه كاذب رهيب. الذي يصنع الأعداء لنفسه هو الصادق، لأنه يقول للناس رأيه الصريح بهم، فكيف يحبونه؟)

ألهذا السبب ضرب أبي دانتي؟

لأنه قال له رأيه الصريح به؟

وماذا قال له؟ (أبي، كل ليلة أكاد أرى وجهك في «جحيم» دانتي. كأنه لم يكتب إسمك، ولم يجعلك واحداً، فقط كي يوزعك على اللصوص والمجرمين والخونة والزناة. كأنه أراد أن ينتقم منك لا مرة واحدة بل ألف مرة ومرة! أكان عليك أن تضربه يا أبي؟)

خرج أوفيد إلى الشرفة، ليتنشق الليل، ويتأمل النجوم.

(*) منهم بابا روما حينئذ!



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الجزء الرابع

# الأمير الضفدع

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لقد خسر من كل يد إصبعاً. فقد عنقه أيضاً، فباتت رأسه متصلةً مباشرة بجسمه. وحرارة دمه صارت من حرارة المحيط الذي يتحرك فيه. ومشيته؟ لم يعد قادراً على المشي! فقط يقفز.

قفز الأمير الضفدع يبحث عن بقعة رطوبة. المياه تتبخر من جسمه بسرعة. الليل أوشك أن ينتهي. وإذا أشرقت عليه الشمس قبل أن يصل إلى بقعة ماء، قد يتشقق جلده أو يموت عطشاً.

لماذا هو عطشان هكذا؟ (تذكر فجأة أنه منذ أيام يشرب النبيذ ويأكل البطاطا المالحة ـ وعندئذٍ تذكر مجدداً أنه ليس هو. أن الذي شرب النبيذ وأكل البطاطا المالحة هو آخر. لأنه لم يعد أميراً، لأنه صار ضفدعاً، أو لنقل: الأمير الضفدع!)

أسفل بطنه تورم، يحسه ينفجر. هذه مثانته، لكن يبدو



Twitter: @ketab_n

أن الضفدع لا يملك تلك العصا. فقط ثقب بين الساقين. حاول الأمير الضفدع أن يبوّل، ضغط ساقيه (طرفيه الخلفيين) على بطنه، لكن عبثاً: لم تخرج منه نقطة واحدة. وفجأة، إذ تذكر شيئاً قرأه قبل أيام قليلة، غمره رعبٌ فظيع. (قد قرأ أن الضفدع يحتفظ بالبول في مثانته ليستعين به على أيام الجفاف. فإذا وجد ضفدعٌ نفسه في منطقة جافة، وأحس أن الحر والسخونة يهددان حياته، عمد إلى امتصاص البول من مثانته وأعاد توزيعه داخل جسمه وفي دمه وحتى فمه!)

كان هذا قمة الرعب: أن يشرب بوله، أن يصبح البول شرابه، وواسطة بقائه حياً. (حياً كضفدع طبعاً). قفز الأمير عالياً، طار في قوس صنع عند انطلاقه زاوية 45 درجة مع سطح الأرض (الزاوية الفضلى للقفزة الأطول)، فتح كفيه (ذات الأصابع الأربع، المتصلة في أسفلها بمثلثات من الجلد الرقيق التي تساعد على السباحة في الماء، كما تساهم في تخفيف سقوط الجسم إذ يهوي في الفضاء)، نزل بيديه وبطنه على الأرض، دفع ثقله إلى الخلف، استخدم طرفيه الخلفيين الطويلين كنابضين، طار مجدّداً في قفزة عظيمة. (فور أن تتحوّل إلى ضفدع تجد نفسك ماهراً في القفز الطويل ـ ذلك يشبه مهارة الطفل الوليد في البكاء!)

فلورنسا تستيقظ من النوم في لحظات، أين النهر؟ أين



Twitter: @ketab_n

النهر؟ أين نهر أرنو الرائع الذي يقسم هذه المدينة إلى قسمين؟ ولا مرة طوال حياته حسب أنه سيجد نهراً ما (أي نهر) رائعاً! لكن هذه حياة جديدة.

لا بد وأنه في شرقي المدينة، فهذا الباب الضخم يعرفه، ماذا يسمونه؟ باب سان بانكراتزيو. أول مرة دخل إلى فلورنسا دخلها من هذه البوابة. وكان برفقة توكا. كيف ينسى تلك الرحلة؟ كان ما يزال صبياً، وساعده توكا على التسلل من القصر سراً، وهربا وجاءا إلى هنا ليتفرجا على الجسور وقد خربها الفيضان(*) الكبير. وعندما عادا ـ بعد يومين ـ وجدا أن المعلم ايسيدور أخفى خبر اختفاء الأمير أوفيد عن باخوس الكبير لأنه رأى في المنام أنهما ـ أن أوفيد وصديقه الشيطان، هذا الـ «توكا» ـ قد ذهبا في رحلة قصيرة للتفرج على جسور فلورنسا التي هدمها الفيضان.

إذاً عليه أن يستدير ويمضي غرباً فيبلغ النهر. دار الأمير الضفدع دورة كاملة ثم نقف نفسه في قفزة عالية. سرعان ما وصل إلى وسط حي سان بييرو سكيرادجو. عرفه فوراً من بلاط الشارع البحري. (لا يسموه صدفاً هنا، بل بلاطاً، من قال له هذا؟) وأحس الرطوبة في الجو، وخلف فمه تماماً، وسمع الصوت. (لقد فقد أذنيه أيضاً إذن، ليربح

(*) فيضان سنة 1333. وقد هدم جسر فلورنسا القديم، وجسر كارايا.



Twitter: @ketab_n

عوضاً عنهما ثقبين خلف عينيه، وبهذين الثقبين سيسمع الصوت من الآن وصاعداً، كل الأصوات، وحتى يحبه إنسانٌ، فيرجع إنساناً!) ما هذا الصوت؟ أليس هدير النهر؟ حاول أن ينظر إلى الأمام بينما يقفز، لكن عبثاً. كلما قفز نزلت سحابة سوداء على عينيه. أهو ضغط الهواء؟ قفز مجدّداً، كلا، يبدو أن للضفدع جفنين ينزلان تلقائياً ـ كالستائر ـ على عينيه كلما قفز، لحمايته من غبار الجو ربما. مرة أخرى جاهد كي يرى بينما يقفز، عبثاً!

حطّ على بطنه، وعوضاً عن متابعة القفز حدّق جيداً إلى الأمام. لا شيء إلا الشارع الطويل والدكاكين عن الجانبين (يتخيل الدكاكين أكثر مما يراها، يرى حافة الرصيف وأسفل الأبواب وفتحات المجاري والأوساخ التي تغطي الأرض وذرّات البن المحشورة بين بلاطات الشارع ـ وقبل لحظة عبرت حشرة فكاد لسانه أن ينطلق خلفها؛ أي رعب؟ أن يأكل حشرة كهذه!) فليقفز مجدّداً إذاً.

وانتبه: إنه لا يعاني من ألم صدره المعتاد. لا ضيق في النفس. لا نبض سريع في القلب. لا غثيان في المعدة. لا وجع في عضلات البطن. وكل هذا القفز ولا دم نزل من فمه، ولا نزيف أصاب عينيه أو أذنيه. كم هذا رائع؟

مؤخرته، جسمه، سلسلته الفقرية، رأسه، أطرافه



Twitter: @ketab_n

الأمامية، كل خلية منه، مرة أخرى، ترتد إلى الخلف. كل الثقل يقبع على الساقين (الأطراف الخلفية الطويلة كأنها الأطراف الخلفية لبني آدم. فقط أطول نسبياً، وهناك تلك المثلثات الجلدية التي تصل بين أصابع الأقدام!) استعداداً للإنطلاق في قفزه جديدة خلال جزء من الثانية. كل هذا الثقل والضفدع يحس بخفة لا متناهية (هل قال «الضفدع!» هل فكر «الضفدع؟» أبهذه السرعة نسي أنه الأمير أوفيد؟).

طار في الهواء، تمدد في الفضاء، كالسهم سابحاً عبر الجو، لا يزعجه إلا ذلك التورم في مثانته، عيناه مغمضتان، الريح على جلده الناعم الرطب (أو اللزج!)، يتخيل الأرض تصعد نحوه ببطء، وفي اللحظة التالية ينزل نحوها بخفة طائر من طيور السماء.

والآن تغزو خيشومه (فمه عريض، فوقه فتحتي الأنف) رائحة صوف وحرير. هذا يعني أنه قد بلغ ضاحية أينيسانتي. والد توكا كان يملك مصنعاً لغزل الحرير هنا. لمنفعة هذه الضاحية الصناعية أنشىء جسر كارايا الخشبي عام 1220. (هذا الجسر ذاته الذي تفرج عليه مع توكا مهدّماً عقب فيضان 1333). هذا يعني شيئاً واحداً فقط: النهر على بعد خطوتين. (لا، لا، ذلك العصر انتهى: على بعد قفزتين!) فاقفزْ أيها الأمير الضفدع إلى نهرك!

* * *



Twitter: @ketab_n

وها هو يسبح. هو الذي لم يسبح أبداً إلا في المنامات. (لكنه لم يعد هو، ألم يفهم بعد؟). بحركة رشيقة من ساقيه ينطلق إلى الأمام قاطعاً نهر أرنو. وأخيراً تلقائياً ـ ينفجر سهم البول خارجاً من الثقب بين فخذيه. (الآن اطمأن جسده، لم يعد بحاجة إلى ماء، لديه النهر كلّه). يا له من شعور!

يرفع رأسه فوق الماء، ويتوقف عن السباحة. تُرى أما يزال قادراً على إطلاق الأصوات البشرية؟ لا يحاول ذلك، يفكر أولاً: صندوق الصوت عند الضفدع بدائي جداً، إنه يأخذ الهواء عبر خيشومه إلى رئتيه، ويجمع جزءاً منه في كيس جلدي يقع في ذقنه، ثم ينفخ: كررك، كوكس، كرررك، كرررك... فيكف يكون ما يزال قادراً على اطلاق أصوات بشرية؟

فكر الأمير الضفدع أنه بالتأكيد لن يقدر على الكلام كالناس، فكر في كلمة يجربها، قال:

ـ أوفيد.



Twitter: @ketab_n

سمع صوته كما هو، كرّر:

ـ أوفيد أين أنت؟

فعاد إليه صدى صوته من الضفة المقابلة:

ـ أوفيد، أين أنت؟

* * *

في الأيام التالية، متذكراً معلمه وقوانين الجدل، سيطرح الأمير الضفدع هذا السؤال المحير على نفسه:

ـ ماذا لو كان صوتي هذا الذي أسمعه، صوتاً أسمعه من داخلي، كأني أتكلم في السرّ أو في المنام! كيف أعرف أن غيري أيضاً يستطيع سماعه؟

* * *

عندما تعب من السباحة لجأ إلى الضفة لينام قليلاً. كان جائعاً بالطبع، لكنه قرر ألا يفكر في الموضوع قبل استيقاظه. (كان في أعماقه يملك الحلم التالي: أن يستيقظ فيجد أنه ما يزال إنساناً، وأن حكاية التحول إلى ضفدع هذه ليست سوى منامٍ!)

أطرافه تحته، عيناه مغمضتان، ظل الشجرة يحميه من شعاع الشمس، نام الأمير الضفدع(*).

(*) هذه أول غفوة له ـ في حياته الجديدة.



Twitter: @ketab_n

دفع الباب ودخل إلى الغرفة. قفز توكا كالفهد عن السرير، سقطت الشمعة أرضاً. ماريا تغطت مذعورة بالشراشف. وهو وجد نفسه يستل سيفاً ويهجم على توكا. هرب توكا من وجهه راكضاً نحو الباب وهو يرمي معطفاً على كتفيه. علق كمّ المعطف في مسكة الباب، قفزت ماريا لترد عنه ضربة سيف هائلة من ذراع أوفيد اليمنى. (الذي، لسبب ما، تخيل عندئذٍ أنه ضفدع).

ببطء رفع الضفدع النعسان جفنيه ونظر إلى النهر ما يزال يجري. تحرك إلى الخلف قليلاً، لأن الشمس تحركت في قوسها وظل الشجرة انسحب بالتالي إلى الوراء، منكمشاً بعض الشيء. أغمض الضفدع عينيه ببلادة.

لم يدفع الباب ولم يدخل. فقط نزل شجرة التوت مجدّداً، ومضى عائداً عبر غابة الخريف(*) إلى بيته. (إنه لا يركض، فقط يرجع إلى غرفته بسرعة). أخيراً يرمي نفسه على السرير: لقد خسر كل شيء، حبيبته التي لن يكون له غيرها (دانتي بعد بياتريس تزوج وبات أباً، أما هو فلن يتزوج ولن يحب بعد الآن أبداً) وصديقه الذي لم يكن له في الحياة صديقٌ غيره.

---

(*) في الحلم، تبدّل الفصل من الصيف إلى الخريف.



Twitter: @ketab_n

فجأة تحوّل الهواء إلى ريح باردة. قفز الضفدع إلى شق في صخرة قريبة. حشر نفسه داخله. لماذا كان عليه أن يهرب، لماذا كان عليه المجيء إلى هذه المدينة، أية آلهة سددت خطاه إلى شارع الليلة الماضية، أي قدر لعين خبطه بتلك الساحرة، ولماذا كان عليه أن يقارن البشر بالضفادع؟

* * *

في الأيام، والأسابيع، والشهور، والسنوات التالية، سيطرح الأمير الضفدع (أو الضفدع الذي كان أميراً) على نفسه هذه الأسئلة ـ وأسئلة كثيرة غيرها ـ مراراً وتكراراً، وسوف يصل إلى نتائج لافتة. مثلاً لماذا اختار أن يقارن البشري، في كذبه وحقارته ولزوجته، بالضفدع؟ (هذه المقارنة منه التي دفعت الساحرة إلى مسخه ضفدعاً!)

توصل الأمير الضفدع ـ مع الوقت، والتذكر، وإعادة التفكير، ومواصلة اكتساب الخبرات في حياته الجديدة ـ إلى أربعة أجوبة مختلفة على هذا السؤال.

الجواب الأول: مسرحية «الضفادع» لليوناني أريستوفان. ففي تلك المسرحية ينزل ديونيسوس إلى العالم التحتي ليجلب إلى العالم شاعراً ومسرحياً كبيراً كان قد مات قبل سنة واحدة. (وفي هذا استعادة للأسطورة القديمة: أي



Twitter: @ketab_n

البحث عن الأم الميتة وإعادتها إلى الحياة). لكنه في طريقه إلى هناك يتوجب عليه أولاً أن يقطع بحيرة على متن قارب. وفيما هو يقطع البحيرة المذكورة يأخذ كورس من الضفادع في النقيق كرك، كرك، كرك، كوكس، كررك، كررك. كل هذا لإزعاجه وإثارة غيظه. وفي المقابل ماذا يفعل هو؟ يجابههم بسلاحهم، يتحداهم في النقيق، ويبدأ:

ـ كرك، كرك، كرك، كرك، كوكس، كررك....

حتى يصيبهم الخرس، فيبتسم ظافراً. فقد تذكر الأمير الضفدع الانطباع الذي سيطر عليه وهو يقرأ هذا الفصل من المسرحية. (قرأها في الأصل اليوناني، وعرف أنها عندما عُرضت، على مسرح آثينا، خلال القرن الخامس قبل الميلاد، حازت على الجائزة الأولى، وأحدثت ضجة هائلة ـ خصوصاً وأن أحد أهم أبطالها كان مسرحياً متوفياً قبل سنة واحدة، ويملك شهرة تضاهي شهرة أريستوفان). فهذا المشهد عن الضفادع هو المشهد الوحيد الذي تظهر فيه الضفادع طوال المسرحية. فلماذا أعطى الكاتب لمسرحيته هذا العنوان؟ إنه عنوان رمزي بالتأكيد. (قال له معلمه إيسيدور: كل شيء رمز، حتى الحجر في الحديقة رمز. فكّرْ في هذا!).

من هم الضفادع؟ (إسحاق الروماني الذي ورث الأمير أوفيد نسخته من «كوميديا» دانتي ـ عبر معلمه إيسيدور ـ



Twitter: @ketab_n

نصح قراء «الكوميديا» بالعودة إلى هذه المسرحية لسبب واحد فقط لا غير: وجود رحلة إلى العالم التحتي فيها. كالرحلة في إنياذة فرجيل، كالرحلة في جحيم دانتي. الأمير أوفيد وجد سبباً آخر للعودة إلى أريستوفان. هذا السبب يصنع جوابه الثاني في حياته الجديدة كضفدع).

الجواب الثاني: بينما يقرأ «الجحيم» ويعيد قراءته، استوقفت الأمير أوفيد ملاحظة مهمة: لسبب ما يلجأ دانتي مراراً وتكراراً إلى الحديث عن الضفادع بصورة غير مباشرة في «الجحيم»(*). بل وأن معظم إشاراته إلى الضفادع تأتي في معرض مقارناته لها بالجنس البشري! في ذهنه عدّد الأمير الضفدع ما يلي:

الأنشودة التاسعة: «وكالضفادع أمام عدوّها الأفعى إذ تتفرق كلها غاطسةً في الماء حتى تلتصق جميعاً بالقاع، هكذا رأيت ألف نفسٍ هالكة تهرب...

الأنشودة الثانية والعشرون: «وكما تقف الضفادع عند حافة مياه خندقٍ بخيشومها وحده في الخارج حتى تُخفي أقدامها وسائر الجسم، كذلك وقف الآثمون في كل جانب،

---

(*) رغم أنه قرأ «المطهر» والفردوس» أيضاً، لكن الأمير الضفدع لم يحفظهما عن ظهر قلب ليجد فيهما الأجوبة على أسئلته ـ أما «الجحيم» فحفظها كلمة كلمة.



Twitter: @ketab_n

ولكن ما أن أخذ باربارِيتش يقترب منهم حتى انسحبوا تحت الحميم الآني. رأيت، وهو ما لا يزالُ يرتجف منه قلبي، واحداً ينتظر هكذا، كما يحدث أن يبقى ضفدعٌ ويختفي آخر...

الأنشودة الثالثة والعشرون: «اتجه فكري بالعراك الحالي إلى خرافة ايزوب، حيث تحدث عن الضفدع والفأر...

الانشودة الثانية والثلاثون: «وكما يقف الضفدع للنقيق بخيشومه خارج الماء، حينما تحلم فتاة الريف كثيراً بالتقاط فضلات الحصاد...».

وتساءل الأمير الضفدع بعد أن عدّد هذه الأمثلة الأربعة من ذاكرته، هل نسي أمثلة أخرى؟ (أليست الذاكرة جزءاً من المخّ؟ فكيف يتذكر كل هذه الأشياء، ومخّه صار أصغر من مخ العصفور؟ مرة أخرى يتذكر الضفدع معلمه إيسيدور: «تذكر دائماً سقراط: فقط نعرف أننا لا نعرف شيئاً(*)!)

فقط نعرف أننا لا نعرف شيئاً، لكن إذا كنا لا نعرف شيئاً فكيف نعرف أننا نعرف هذا؟ تساءل الأمير الضفدع. (وعندئذٍ تذكر أنه في حياته القديمة لم ينتبه إلى هذه الحقيقة أبداً. تُرى لماذا؟)

---

(*) ذات مرة عندما استخدم أوفيد هذه الحكمة خلال جولة جدل مع معلمه، قال له هذا الأخير: في هذه الحكمة مفارقة!



Twitter: @ketab_n

الجواب الثالث: لقد قضى أوفيد ليالٍ طويلة من حياته (كل الليالي الخالية من المطر والزمهرير) جالساً على الشرفة أو في الحديقة يستمع إلى نقيق الضفادع، وفي النهارات كان كثيراً ما يشاهدها تتقافز في البساتين. وحتى داخل القصر. (استقدم كبير المزارعين ـ وهو المسؤول عن بساتين القصر ـ مجموعات كبيرة من الضفادع، من شمالي البلاد، للقضاء على الحشرات الضارة التي تغزو المزروعات بكثافة خطرة).

هكذا أصبح أوفيد يحس أنه يقضي بين الضفادع وقتاً أطول من الوقت الذي يمضيه بين البشر. لهذا السبب تحوّلت الضفادع إلى هاجس دائم لديه(*): فكان يعقد المقارنات دوماً بين نقيقها المتواصل، وضجة الناس الذين لا يتوقفون عن التوافد إلى القصر. أو بين الطمع في عيونها إذ تعبر ذبابة، وبين الطمع في عيون البشر إذ يتجمعون إلى مائدة بانتظار وصول الخنزير المشوي إلخ..

الجواب الرابع: عندما رآهما هناك، تحت شبكة الضوء الأصفر، توكا وماريا، عاريين وقاتمين كضفادع الطين، والعرق يسيل منهما، ويحوّلهما إلى جسم واحد من اللزوجة ـ كأنهما ضفدعان، بلى.

(*) هل هذا حقيقي فعلاً؟ أم أنه يتخيل هذه الأشياء الآن وقد أصبح ضفدعاً؟



Twitter: @ketab_n

وتأمل الضفدع الذي كان أميراً ويُدعى أوفيد ويقرأ الكتب وينسخ ما يحبه منها (آخر ما نسخه قبل تحوّله: الجزء الأول من «كوميديا» دانتي)، تأمّل الأمير الضفدع في أجوبته الأربعة، ومتذكراً زينون الأيلي، ذلك الفيلسوف الكبير، توصل إلى جواب خامس، هو حاصل جمع الأجوبة الأربعة السابقة، لا أكثر ولا أقل.

* * *

وفكر الأمير الضفدع ـ في حيلة رياضية تليق بفيثاغورس ـ في جواب سادس هو حاصل جمع الأجوبة الخمسة السابقة وفي جواب سابع هو حاصل جمع الأجوبة الستة السابقة وهكذا إلى ما لا نهاية(*)...

* * *

عندما أدرك أنه على وشك الموت جوعاً، أطلق لسانه الطويل خلف بعوضة. فجاءه الذلّ مضاعفاً إذ لم يصب هدفه، ونجت البعوضة. عندئذٍ بحث عن نملة حوله وعندما وجدها أطلق لسانه مجدداً. التصقت النملة باللسان، ارتفعت عن الأرض، جذبها اللسان داخل فم الضفدع ـ الذي قبل

---

(*) مخ الضفدع الصغير يتسع لتسعين جواباً فقط. لهذا تساوي اللانهاية عنده «تسعين + واحد» (فكر الأمير الضفدع).



Twitter: @ketab_n

ليلة فقط، كان رجلاً مخموراً، وقبل إسبوع أميراً.

* * *

أصابه الخجل الشديد (هذه تربية الضفادع الذين كانوا أمراء) عندما اكتشف انه قد أحب طعم النمل. (تلك الحموضة فيها، تشبه حموضة البندورة في أواخر الصيف. أما رائحتها فمزيج من رائحة لحم الغنم النيء والبصل الأخضر!) ومع مرور الوقت سينسى خجله، ويسعى إلى اكتشاف مذاقات مفردة أخرى: الذباب العادي، الذباب الأزرق، البعوض الطنان، البعوض الساكن، بعض أنواع العناكب، ديدان النباتات النهرية إلخ... وفي مرحلة لاحقة (بعد أكثر من شهر لكن أقل من شهر ويومين) سيبدأ رحلته مع المذاقات المركبة: نملة كبيرة مباشرةً بعد ذبابة زرقاء ـ هذا الطعم الحامض للنملة، مباشرةً بعد الطعم المالح الذي يميز أجنحة الذبابة الزرقاء، وجده الأمير الضفدع رائعاً. أو: عنكبوت أحمر صغير مع بعوضة ـ طنانة أو غير طنانة: هنا مزيج من الحرارة اللاهبة للعنكبوت، كالفلفل الهندي، والطراوة البالغة لقلب البعوضة الذي يفوح برائحة الزيتون المكبوس(*)!

* * *

(*) بلى، سيظل الأمير الضفدع يقارن طعامه الجديد بطعامه القديم ـ كأنه لا يريد نسيان حياته السابقة.



Twitter: @ketab_n

إنه الخريف. أوارق الشجر تتساقط. البعوض تلاشى من الهواء كدخان قديم. من بعيد يراقب الأمير الضفدع جوقة من الضفادع، وقد احتلت رقعة من المياه الضحلة وبدأت نقيقها. (إنه موسم التزاوج. عادةً لا يبدأ النقيق إلا مع غياب الشمس وهبوط الظلام، لكن هذا النهار معتم كمساء، والغيوم الثقيلة السوداء تربض على ارتفاع أقدام عن سطح الأرض).

يخاف الضفدع الذي كان أميراً أن يشموا رائحته أو يكتشفوه ـ هو الذي يتلصص عليهم، من مطرحه، أسفل الشجرة. (ما هذه الشجرة؟ حور أم صفصاف؟).

لا يهلكهم البرد، رغم هذا الهواء، ورغم كونهم يرقدون في الماء، أجسامهم كلّها مغطاة بالنهر، فقط خياشيمهم وعيونهم الجاحظة تظهر له. كيف لا تبرد الضفادع؟ (يعرف: معلمه إيسيدور أهداه عندما بلغ الرابعة عشرة، كتاباً لليوناني أرسطوطاليس يحمل عنوان «طباع الحيوان». هذا الكتاب المخطوط قبل ولادة المسيح تُرجم إلى اللغة العربية في القرن التاسع للميلاد على يد يوحنا بن البطريق ولم يلبث الانكليزي ميخائيل سكوت أن ترجمه من العربية إلى اللاتينية في منتصف القرن الثالث عشر بأمر من الأمبراطور فردريك الثاني. يعرف لماذا لا تبرد الضفادع: معلمه إيسيدور ملأ هوامش النسخة التي أهداه إياها ـ من



Twitter: @ketab_n

«طباع الحيوان» ـ بملاحظات كثيرة توصل إليها بعد تجارب منهكة وطويلة. يعرف: كتب معلمه إيسيدور أن الضفادع دمها بارد وليس ساخناً كدم الثدييات، ولهذا فإنها تأخذ حرارة جسمها من حرارة محيطها).

لكن، إذا كانت الضفادع لا تبرد، فلماذا يحس هو بالبرد الآن؟ فجأة تذكر الأمير الضفدع أن خالته ـ ليديا ـ البدينة التي كان يحسب قبل موتها أنها أمه ـ كانت في احتضارها تصرخ وتقول إنها تكاد تموت من الصقيع. وقد كان ذلك في عزّ الصيف، وكان الطبيب جالساً قربها، والعرق يتصبب منه.

* * *

تمرغ قليلاً بأوراق رطبة إلى يساره. يجب أن يبقى جلده مبتلاً، وإلا أحس بضيق في نفسه. هكذا حياة الضفادع البائسة، فكر ضاحكاً. فالضفادع رغم أنها تملك رئتين كالإنسان، لا تستطيع أن تتخلص مثله ـ عبر هاتين الرئتين ـ من غاز ثاني أوكسيد الكاربون، بأن تزفره خلال فمها إلى الخارج. بلى، تتخلص من جزء منه على هذا النحو، لكن هذا لا يكفي. فإذا لم تتخلص من بقاياه عبر جلدها، اختنقت به، وماتت. وكي يخرج ثاني أوكسيد الكربون خارجها، يتوجب على الضفدعة أن تترك جلدها رطباً على



Twitter: @ketab_n

نحو دائم: إن الجلد الجاف يعني الموت عندها. (إذا أخذها القدر إلى بقعة من الصحراء اختنقت قبل أن تحرقها الشمس!)

جندب حظه تعيس تحرّك على مقربة. رصده الأمير الضفدع بعينه اليمنى. تهيّأ لنقف لسانه، تأكّد من مرونة عضلات فكه وخيشومه، انتظر سكوناً خاطفاً للهواء (أصبح محترفاً في الصيد، مع التمرين، ثم وأنه يملك أفضلية هائلة على الضفادع العادية: إنه ماهر في حساب المسافات، لأنه قرأ الخوارزمي وقرأ فيثاغورس). ثمّ فجأة انتهى كل شيء: أيّة سرعة رهيبة لا تلتقطها العين البشرية! التصق الجندب بالسطح المطاطي الدبق للسان الأمير الضفدع. وفي الجزء التالي من الثانية ذاتها، تم ابتلاعه!

لم يحب طعمه. وجده مرّاً. أغلب الظن أنه منذ فترة يقضم ورق السنديان. (ذلك الجندب البائس ـ لماذا لم ينط بعيداً قبل أن يلتقطه؟). أراد أن يقفز إلى النهر ليشرب جرعة ماء يزيل بها الطعم المرّ عن لسانه وغدده. لم يفعل، خاف أن تحس به ذكور الضفادع الهائجة والمجتمعة في جوقة نقيق تنادي على إناث الضفادع لتأتي إليها من البقاع المجاورة.

فجأة خيّل إليه أن ضفدعاً بينهم قد استدار وأخذ يحدّق في اتجاهه. ملأ الرعب قلب الأمير الضفدع. (بلى، الضفدع كالإنسان يملك قلباً. قلب الإنسان يتكوّن من أربعة



Twitter: @ketab_n

تجاويف أمّا قلب الضفدع فمن ثلاثة). ماذا لو رآه؟ عندئذ ماذا سيحصل؟ هل سيهاجمونه؟ هل سيدركون فوراً أنّه ليس مثلهم؟ (أحياناً يحدّق إلى صفحة النهر في موضع رائق منه، وينظر إلى وجهه: يفكّر أنّه الأمير أوفيد ينظر إلى ضفدع تحت صفحة المياه يحدّق إليه! ضفدع لا يختلف في شيء عن الضفادع الأخرى. إلاّ في نظرته ربما. هذا ضفدع حزين. الحزن الذي يلي الغضب(*). الحزن الذي تصنعه الخيبة الكبيرة!)

ذلك الضفدع استدار مجدّداً. لم يره، فقط استدار في الماء، ربما كان يتبوّل، ربما يصحح من وضعية أقدامه. غير أنّ هذه الجولة من الرعب جعلت الأمير الضفدع يتخذ قراراً حاسماً: بعد هذه اللحظة، لا مزيد من التلصص على قطعان الضفادع، وعليه بالابتعاد عنهم أقصى ما يستطيع. (هم وجميع الكائنات الأخرى، التي من حجمه أو أكبر منه).

تراجع متقهقراً بحركة بطيئة وصعبة تسببت له بآلام مبرحة في سلسلته الفقرية. وأخيراً، عندما وجد جسمه مخفياً عن مرمى بصر الضفادع بجذع الشجرة، نقف نفسه، في قفزة ثلاثة أمتار، إلى دغل قريب.

* * *

(*) هل يستطيع ذات يوم نسيان ذلك المشهد: توكا وماريا؟



Twitter: @ketab_n

إنه الفجر. لا صوت يُسمع إلا صوت النهر. وزقزقة عصافير متقطعة. النجوم تتلاشى. خلال الليل ـ ليدفع عن أعصابه نقيق الضفادع الهائجة ـ حفر لنفسه حفرة في التراب الرطب دافناً جسمه فيها حتى عينيه. (يسمع عبر ثقبين خلف عينيه. هكذا طمرهما بالتراب. فما عاد يسمع، إلا ارتجاج التراب بين حين وآخر، إذ تهب ريح قوية، أو يتحرك حيوان ما على مقربة ـ معظمها غزلان تجفل من الضفادع، ولا تقربها). هكذا قضى الليل محدقاً إلى النجوم في السماء.

من كل نجمة يخرج شعاع ضوء، يعبر المسافات إلى الأرض كي يقع داخل عين الأمير الضفدع، فيرى النجمة، أي سحر! فكر الأمير الضفدع مرة أخرى في الكتاب الأخير الذي نسخه. أما كان يفكر فيه ذلك المساء أيضاً، قبل أن يرى توكا وماريا، ويتبدل كل شيء!

وعندما رأى العجوز تنهض بعد أن قذفها بيمناه (من أين جاءت كل تلك القوة إلى ذراعه، هو المريض منذ طفولته، والذي لا يستطيع أن يحمل مجلدين معاً؟)، وعندما أحس بالكهرباء حولها (يعرف الكهرباء جيداً: ذات مرة نزلت صاعقة في حديقة القصر وهدمت جدار البركة)، ألم يتذكر فجأة الأنشودة الخامسة والعشرين من «الجحيم»؟

هكذا، محدقاً إلى نجمة الصباح التي ما تزال واهنة



Twitter: @ketab_n

الضوء أنشد الأمير الضفدع، بلهجة فلورنسا، ذلك المقطع الذي يسبق وصف دانتي لتحوّل الزاحفة إلى إنسان، والإنسان(*) إلى زاحفة، بعد أن لدغته في سرة بطنه:

«كذلك بدت زويحفة غاضبة، وهي تتقدم نحو بطني الإثنين الآخرين، وكانت سوداء داكنة كحبّات الفلفل، وفي ذلك الموضع الذي نستمد منه الغذاء لأول مرةٍ، لدغت واحداً منهما، ثم سقطت ممددةً أمامه إلى أسفل. نظر الملدوغ إليها ولم يقل شيئاً، بل تثاءب ثابت القدمين كمن هاجمه النعاس أو الحمى.

نظر إلى الزاحفة ونظرت إليه، وأخرجا دخاناً كثيفاً، الرجل من جرحه والزاحفة من الفم، والتقى الدخان بالدخان... ليسكت أو فيديوس عن كادموس وأريتوزا، لأنه إذا كان، وهو يقرض الشعر، يحوّل ذلك إلى أفعى وهذه إلى ينبوع، فإني لا أحسده، فإنه لم يحوّل أبداً طبيعتين وجهاً لوجهٍ، حتى كان كلا الشكلين مستعداً أن يبادل الآخر مادته».

توقف الأمير الضفدع عن الإنشاد وفكر في المصادفات الغريبة: إن دانتي يتحدى أوفيد (أوفيديوس)، وهو ـ الأمير

---

(*) الإنسان المذكور لصّ يُدعى بوووز دلي أباتي. وكان واقفاً قرب لص آخر، قبالة دانتي، عندما ظهرت الزاحفة (الأفعى).



Twitter: @ketab_n

الضفدع الذي يُدعى أوفيد ـ الآن يتحدى دانتي: دانتي كل عمره لم يتحوّل ضفدعاً!

ابتسم الأمير الضفدع وحاول أن يتذكر تلك المقاطع في قصيدة «التحولات» حيث ينشد أوفيد حكايات كادموس وأريتوزا. (كان كادموس مؤسس مدينة طيبة، وقد تحوّل إلى زاحفة. وأما أريتوزا فكانت من تابعات الإلهة ديانا، وقد تحوّلت إلى ينبوع كي تتخلص من ملاحقة ألفيوس لها).

وكان ضوء الفجر قد ملأ السماء الآن بلون أزرق يميل إلى الاخضرار، وفكر الأمير الضفدع أن لون الفضاء في هذه اللحظة يشبه لونه، وتذكر أيام كان أميراً، والمربيّات ـ سرّاً ـ يسخرن من بياض بشرته (أبيض كاللفت، بطنه لم ترَ الشمس في حياته!). ومرة أخرى وجد نفسه يتذكر كتاب دانتي: ماذا قال فرجيل لدانتي في أول الكتاب؟ ماذا كانت الكلمات الأولى لفرجيل في «الجحيم»؟ (فرجيل الذي كالأب سيقود دانتي في متاهة العالم التحتي، فرجيل الذي ظهر لدانتي كالشبح من الفراغ الكبير!).

أنشد الأمير الضفدع ـ بصوت مبحوح: «وبينما كنت أهبط مندفعاً إلى الموضع الخفيض، ظهر أمام عيني، من بدا لطول صمته أبحّ الصوت. ولما رأيته في الفراغ الكبير صحتُ به: «كن رحيماً بي، كائناً من كنت، شبحاً أو إنساناً حيّاً».



Twitter: @ketab_n

فأجابني: «لست إنساناً، وكنتُ من قبل إنساناً، وكان أبواي من لمبارديا(*)...».

جاء الهواء من جهة المدينة، متقلباً كطابة شوك فوق النهر. كان محملاً برائحة البشر، فأحس الأمير الضفدع بألمٍ ممضٍ في صدره.

وكرّر مع فرجيل الميت:

«لستُ إنساناً، وكنتُ من قبل إنساناً».

* * *

عند الظهيرة، بعد غذاء دسم، نزل إلى النهر ليرتوي، فرأى صورته في الماء.

حدق الضفدع إليه من مرآة النهر، قال:

ـ كنتُ أميراً.

(*) وطن فرجيل ـ في شمالي إيطاليا.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الجزء الخامس

# بعد سنوات...

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

## ما هذه الرائحة؟

ذلك الصباح أيقظته رائحة كريهة. ما هذه الرائحة؟ تساءل الأمير الضفدع. رائحة طاغية ونفاذة، مزيج من طحالب متعفنة وثمار مهترئة، ما هذه الرائحة؟

خرج الأمير الضفدع من بيته. (منذ سنوات يقيم في تجويف في كعب جذع يابس ومطلي بطحالب خضراء ما يزال يذكر اسمها: كل ما تعلمه وقرأه في حياته الماضية ـ حياته كأمير ـ ما يزال محفوراً في ذاكرته حتى هذه اللحظة: هذا الطحلب ـ الذي من لونه ـ مثلاً، وحيد الخلية، يُدعى بليروكوكس، وكما جميع الطحالب، يُعتبر من أبسط النباتات الراقية، أي النباتات القادرة على صناعة غذائها الخاص، عبر امتصاصها لضوء الشمس. وقبالة بيت الأمير الضفدع، قبالة الفوهة في الجذع، تنمو الكثير من النباتات



Twitter: @ketab_n

غير الراقية، أسفل جذع سنديانة: إنها الفطريات ـ هذا النبات الخالي من اليخضور والعاجز بالتالي عن استخدام طاقة الشمس لصناعة غذائه الخاص. بين هذه الفطريات فطر جميل جداً، ساقه بيضاء كالثلج، صحنه أحمر منقط بالأبيض. المعلم إيسيدور أخبره أنه سام جداً، وان اسمه «عش الغراب الطائر».

وقف الأمير الضفدع أمام مدخل بيته يتمغط. تمدّد على بطنه معرضاً أطرافه لأشعة الصباح. إنه الربيع، والثلج ذاب قبل شهر، لكن البرد مايزال في الأرض. الأشعة دافئة لذيذة، تتسرب عبر جلده إلى أعضائه الداخلية، تبعث فيه نشوة تدفعه إلى التفكير في النوم حيث هو. يتثاءب، عيناه تنعسان، هل ينام؟

لكن هذه الرائحة الفظيعة لن تدعه بسلام. من أين تأتي هذه الرائحة؟ من تحت، من النهر؟ أم من جهة المدينة؟ (كم مرة حاول طوال السنوات الفائتة أن يمضي بمحاذاة النهر ـ مع مجراه أو عكسه ـ قافزاً نحو البرايا الواقعة خارج بوابات فلورنسا. كان يحسب أنه هناك، خارج بوابات المدينة، سيرتاح من رائحة الناس، ومن الألم الذي تبعثه في قلبه رائحتهم. لكنه كان ما أن يضع نفسه بعيداً عن تلك الرائحة حتى يجد روحه مجذوبةً إليها مجدّداً. وذات مرة صمد خارج المدينة أكثر من عشرين يوماً، غير أن ثعباناً ظهر



Twitter: @ketab_n

له في صباح اليوم الواحد والعشرين، جعله يقفز كالأبله عائداً إلى هنا).

فكر الأمير الضفدع أنه يعرف هذه الرائحة. لقد شمّها من قبل، قبل زمن بعيد، لكن أين؟ ومتى؟ (أول ثعبان في حياته الجديدة، ظهر له قبل أربع أو خمس سنوات، رغم أن الثعابين نادراً ما تظهر هنا، فهذا الجزء من نهر أرنو محاصر بالمدينة عن الجانبين). أغمض الأمير الضفدع عينيه: ما الذي جعله يتذكر ذلك الثعبان المرعب؟ (كان مرقطاً، أسود وأخضر، حلقاته رمادية عريضة. هو فتح عينيه النعستين إذ أحس بحركة، فرآه هناك، خارجاً من دغل القصب، يفحّ زاحفاً ولسانه الرفيع، المشطور الرأس كشوكة الطعام، يتلوى في الفضاء. كان النهر، تحته، على بعد قفزة واحدة. لكن الرعب جمد عضلاته كلّها. كيف يقفز وأطرافه تحوّلت إلى قطع من الجليد؟ هذا الثعبان سوف يبتلعه. عرف الأمير الضفدع أنه سيموت. أراد أن يغمض عينيه، لينتهي كل شيء فوراً، لكن النظرة المغناطيسية الخارجة من عينيّ الثعبان العسليتين جعلته عاجزاً حتى عن ذلك. ظل هكذا، طوال دقائق أو ساعات أو دهور، منتظراً الثعبان كي يزحف المسافة القصيرة الفاصلة، بينهما ويبتلعه. أما الثعبان فزحف بعيداً!).

مايزال حتى هذه اللحظة لا يفهم لماذا تركه ذلك



Twitter: @ketab_n

الثعبان حيّاً. (الضفادع أطيب وجبة عند الثعابين، لا يفضلون عليها شيئاً). ولكن ما الذي دفعه إلى تذكره الآن؟ إن هذه الرائحة الفظيعة لا علاقة لها برائحة الثعابين. (في الحقيقة، رغم رعبه الكبير منهم، فإن الأمير الضفدع يحب رائحة الجلود التي يقشرونها عنهم ويتركونها، كالملابس العتيقة، خلفهم). وهو لم يشم مثلها ربما إلا في حياته الماضية! هل يكون هذا صحيحاً؟ أهي رائحة من حياته البشرية القديمة؟ (القديمة؟ لكن كم سنة مرّت على تلك الليلة، على تلك العجوز التي نهضت في زقاق مظلم كي ترمي عليه لعنتها: كنْ، ذلك المخلوق الذي تحتقر، كنْ ضفدعاً!)

فطر عش الغراب بدا منتعشاً في هذا الصباح الربيعي. (لماذا لا يكون منتعشاً، وهو لا يفعل شيئاً ليحصل على غذائه؟ إنه فقط يجلس هنا ـ ينمو هنا ـ ضارباً جذوره عميقاً في جذور الشجرة المسكينة. ضارباً جذوره؟ بل هو حتى لا يفعل ذلك. إنه فقط يلتصق بجذع الشجرة، كقنديل البحر. قبل دغل القصب، غطّت الأرض طحالب بنية اللون، وأخرى حمراء) وكيفما تلفت الضفدع ـ الذي كان أميراً ـ وقع نظره على أنواع السرخسيات التي تنمو في جوار الأنهار. (قال له معلمه إيسيدور إنه لن يفهم أبداً جهل الإغريق في حقل النبات) كل مرة يتأمل الأمير الضفدع أنواع السرخس المحيطة ببيته (سرخس قرن الوعل بورقتيه



Twitter: @ketab_n

الكبيرتين المستديرتين كقرون الوعل، سرخس كزبرة البئر بأوراقه الشبيهة بأوراق الكزبرة الخضراء، سرخس مرسيليا ـ النادر في هذه البقاع ـ بوريقاته الأربع تعلو العنق الطويل والدقيق). يلجأ إلى تكرار أسمائها اللاتينية ـ الأسماء العلمية ـ في رأسه، إسماً، إسماً: كزبرة البئر ـ إديانتم. سرخس قرن الوعل ـ بلا تيسيريم. . . وأحياناً يؤلف من أسمائها أناشيد! (حتى في أيام زمان، عندما كان أميراً، كم مرة جعله الضجر ـ ذلك الضجر الذي ما عاد يُحتمل بعد انتحار أستاذه وغياب توكا خارج المملكة معظم الأوقات؛ وبعد عزوفه ـ أي عزوف الأمير أوفيد ـ التام عن لعب الشطرنج إلا في ساعتي العصر، كم مرة جعله الضجر يتمدد على ظهره محدّقاً إلى السقف، مردّداً كلمات لا معنى لها ـ على الأقل في الترتيب الذي يضعها فيه ـ ذاهباً في الهذيان حتى الصداع، لا يعرف ماذا يفعل بنفسه!)

(وتساءل الأمير الضفدع(*)، ما قيمة هذه الأسماء كلّها؟ ألا يكفي أن نعرف أن النبات يأخذ ثاني أوكسيد الكربون من الجو ليمنحنا الأوكسيجين؟ بعد ذلك ماذا يهمنا منه؟).

(*) في هذه الأسئلة ـ ومنها ـ يكتشف الأمير الضفدع أنه ما يزال يفكر بنفسه كإنسان ـ كواحد «منا»!



Twitter: @ketab_n

الرائحة لا تطاق. بات متأكداً أن مصدرها المدينة. إنها تتدحرج وتنمو كالطوفان، كسيول البراكين. الجو غدا ثقيلاً، والحشرات تتطاير كأن ناراً تقترب. ما هذه الرائحة.

رفع رأسه، رفع خيشومه، يتشمم. أصاخ السمع: لا شيء، فقط أزيز نحلة خلف دغل القصب (أجنحتها تتحرك بسرعة، الهواء يتموج، موجات الصوت تنتقل عبر الهواء، تبلغ طبلة أذنه ـ بلى، في ذلك الثقب الصغير خلف عينه ثمة طبلة أذن ـ ومن الطبلة، وعبر الأذن الوسطى، تنتقل الموجات الصوتية إلى أذنه الداخلية، وتخبط شعيرات الخلايا، فتلتوي الشعيرات، وتهتاج الخلايا العصبية، فترسل إشاراتها إلى الدماغ ـ ودماغ الأمير الضفدع يقول له: هذا صوت نحلة، هناك نحلة خلف ذلك الدغل!)

فيما بعد يتلاشى طنين النحلة. يبقى صوت النهر تحته. والهواء في شجر الصفصاف. ثم نباح بعيد ـ من المدينة. يليه صراخ. صرخة ثم أخرى. وصوت كالبكاء. ثمة بكاء عظيم في المدينة: تُرى، ماذا يجري؟

قبل سنوات دفعه ضجيج جاء من جهة المدينة ـ من



Twitter: @ketab_n

الضفة الشرقية ـ إلى الاقتراب من شوارعها. رأى حشوداً في الشوارع، أعلاماً، عربات خيل مليئة بالجنود، أطفالاً، وعلى الشرفات رأى سيدات في فساتين ملونة يلوحن. عاد إلى بيته، إلى التجويف في الجذع اليابس، بقفزات طويلة لكن ثقيلة، كأنه غداً عجوزاً فجأة.

في مرة أخرى، عندما جعله الفضول يقترب من بيوت المدينة، إذ سمع صخب طبول وأغنيات، وحدس أنه عيد من الأعياد، كاد أن يفقد حياته: دون أن ينتبه، غافله أحد الأولاد، وأسقط فوقه علبة، ثم أمسك به. كانوا أربعة أو خمسة، عيونهم تلمع، ويضحكون. ثبتوه على بلاطه، شدّوا أطرافه حتى كاد يموت ألماً. مرروا نصل سكين على بطنه الرخوة. (جميع الضفادع بطونها رخوة. هكذا تحطّ بيسرٍ بعد القفز). جلبوا إبرة وشكوها في كتفه. (حيث يلتقي طرف من طرفيه العلويين بجسمه). ثم أشعلوا ناراً على مقربة وجاء أحدهم منها بشعلة. كانوا يريدون إحراقه حيّاً! عندئذٍ فكر الأمير الضفدع: «هم أخطأوا في حق أنفسهم، الذنب ليس ذنبي!». صرخ بهم صرخة واحدة أفقدتهم الرشد. (صرخة بشرية بالطبع. شتيمة بلهجة فلورنسا.). ومضى عائداً إلى بيته. (يحب هذا البيت. إختاره بعناية. إنه يقع على هضبة صغيرة، وبالتالي فالمياه لا تدخله خلال



Twitter: @ketab_n

الشتاء. ومن جهة أخرى فهو يواجه النهر، والهواء عليل داخله في الصيف. كما وأن جدرانه الخارجية ـ أي جذع الشجرة ـ مطلية باللون الأخضر ـ أي الخزّ ـ مما يجعله خفياً عن الأعين!)

قفز الأمير الضفدع، ربض فوق صحن الفطر الأحمر. طارت فراشة صفراء فوقه. كان بمقدروه أن يصطادها، لم يفعل. يحب طعمها، لكنه يحب لونها أكثر، فلماذا يصطادها؟ البعوض كثير هنا، الجنادب أيضاً، وكلها أصواتها مزعجة! لماذا يأكل فراشة صفراء، وساكنة؟

أحس بألم خفيف في فقرات سلسلته. هذا الألم يأتي إليه كل ربيع. لا يتذمر منه. هذه آلام لا قيمة لها. (هو يعرف معنى الألم من حياته القديمة: النزيف، السعال، الأرق، النوبات الصدرية، التعرق، نوبات الصرع...). بالكاد تزعجه. أحياناً يصيب مؤخرته خدر يدغدغه، يجعله يضحك، فتظهر أسنان فكّه العلوي. (لا تملك الضفادع إلا هذه الأسنان. فوجود أسنان في الفك السفلي أيضاً قد يتسبب بجرح لسانها والقضاء عليها). وعندما يصيب مؤخرته الخدر (يحس نملاً يمشي عليها) يعمد إلى تحريك عضلات ذيله المفقود. (يمتلك الضفدع في أسفل جسمه عضلات



Twitter: @ketab_n

مخصصة لتحريك الذيل، لكنه لا يملك ذيلاً. هذه المفارقة تفسرها سيرة حياته: فالضفدع يولد بلعوطاً، والبلعوط له ذيل، لكنه عندما يتحوّل ضفدعاً يفقد هذا الذيل، دون أن يفقد العضلات التي كانت تحركه).

عبرت بعوضة، فأرسل لسانه خلفها. لم يصب الهدف. فكر أن هذا أفضل. يحب البعوض عند العصر. يكرهها فطوراً صباحياً. ربما الأفضل له أن ينزل حتى النهر. حشرات النهر أطرى، أخف على المعدة في الصباح. (قبل أيام، بعد وليمة جنادب، أصيب بعسر هضم فظيع، تقيأ سائلاً أخضر، تذكر أيام مرضه في القصر، كره حياته كلّها!).

يا للرائحة الفظيعة! عبثاً يحاول أن يتذكر أين شمّها من قبل. تبدو له أليفة جداً. رغم ذلك يعجز عن تحديد المكان والزمان الذي عرفها فيه. (تذكّر يا أوفيد، تذكّر!)

تمغط فوق صحن الفطر الأحمر. (أطرافه الخلفية أطول من جسمه بثلاث مرات). ملمس الشمس على جسمه يملأه بالنشاط. رويداً رويداً أخذ جلده يجف. عليه أن ينزل ويغطس في النهر غطستين. يسبح قليلاً، يمرن عضلاته، وعندما يجوع جيداً يتناول فطوره، ثم يرجع إلى هنا، يتمغط في الشمس الدافئة، ويفكر في الأشياء. (الضفادع الأخرى



Twitter: @ketab_n

تربض على أطرافها وبطنها بعد التمغط لتنام؛ هو يترك النوم لآخر الليل. أحياناً لا ينام طوال أيام، وحتى يجبره جسمه على النوم).

مع كل لحظة تمر، الرائحة تقوى وتطغى. تذكر معلمه إيسيدور، وفي اللحظة ذاتها تذكر خالته ليديا. (تلك التي كان يحسبها أمه حتى ماتت). قفز عن الفطر إلى الأرض. نزل إلى ضفة النهر. ربض على الوحل. بطنه الغني بالأوعية الدموية أخذ يمتص الماء ويوزعه داخل جسمه. فكر الأمير الضفدع أن ماء الوحل أقل برودة من ماء النهر. وضحك: «هكذا لا تصيبني نزلة برد مفاجئة».

في النهر طالعته صورته، يكسرها تيار الماء إلى صورة متموجة. (هذا وجهه الجديد. البشرة البيضاء اختفت وحل مكانها لون أخضر. أين عيناه وأنفه وفمه؟ أين أذناه؟ أي سحر جعله هكذا؟) لولا المنامات لنسي وجهه البشري. قبل سنوات كان يصاب بالذعر عندما يرى انعكاس وجهه هذا. الآن اعتاد عليه. (ليس تماماً بالطبع. لكنه على الأقل ما عاد يفزع منه).

هبّ هواء، غمرته الرائحة الثقيلة. فجأة تعرف عليها: إنها الرائحة التي فاحت من خالته يوم ماتت!



Twitter: @ketab_n

## فلورنسا (آذار ١٣٤٨)

عندما اقترب من المدينة رأى الجثث تملأ الشوارع. على مقربة، امرأة عارية، تغطيها البقع السوداء. فكر أن هذه البقع تشبه تلك البقع التي ظهرت على جسد خالته وأمه قبلها. (يعرف عن أمه من ذلك الرقاق الذي جلبه له توكا. يتذكره دائماً ـ الرقاق. ومرة فكر في القفز حتى صقلية ليتفرج على ذلك البيت حيث عاش باولو، جده!)

وسط الشارع رأى ثلاثة رجال يجرون الجثث العارية ويكدسونها فوق عربة لا أحصنة تجرها. عندما انتهوا من تكديس الجثث بدأوا بجرّ العربة. (كدّسوا قرابة العشرين جثة. رغم ذلك ظلت الأرض مغطاة بالجثث. كيف تجمع أوراق الخريف من الغابة؟ فكر الأمير الضفدع).

في حي آخر رأى كلاباً ميتة. وعلى مبعدة شاهد ناراً



Twitter: @ketab_n

تشتعل، ورجلاً يرمي كومة ثيابٍ فيها. قفز مقترباً، وربض خلف زاوية رصيف. كان عنق الرجل مغطى بحبوب كبيرة تشبه بيوضاً نامية تحت الجلد. وفي عروة قميصه وردة.

قرب الجسر القديم مشى كاهنان وخلفهما قافلة من عربات الجثث، يجرها رجال عراة الصدور. كان العرق يتصبب منهم، ورأى كاهناً من الكاهنين يلتفت نزولاً نحو النهر، وتشرد نظراته. (تُرى ماذا يفكر؟ هل يتخيل نفسه سمكة قادرة على النزول في النهر، والضياع بعيداً بعيداً عن هذه المدينة!)

قرب مغزل النسيج (هنا عاش والد توكا قبل سنوات) رأى كلباً ينهش جثة طفل. بعد ساعة، بينما يطوف في الجانب الآخر من المدينة، حيث القصور والكنائس، رأى ذلك الكلب نفسه يقع ثم ينهض ليقع. (عرفه من بقعة على ظهره، ومن تورم بين عينيه!). انقلب الكلب على جنبه، كان صوته أفظع من كل الصرخات التي تتردد بين بيوت المدينة.

في السماء حلقت أسراب غربان. قرب بركة يفور الماء عن جوانبها تمدد رجل في ملابس فارس. فكر الأمير الضفدع إنه يشبه توكا. اقترب منه بقفزتين قصيرتين. كان الرجل يلعق الماء عن الأرض، غير قادرٍ على الوقوف.



Twitter: @ketab_n

عندما التقت نظراته بنظرات الأمير الضفدع حرّك ذراعه اليمنى حتى وسطه: كان يسعى إلى سيفه، لكن القوة اللازمة لاستلال السيف من غمده ما كانت في جسمه. هوت يده قربه. فغر فاه. عيناه جاحظتان. فكر الأمير الضفدع أن هذا الرجل يشبه بزاقة.

هبط سرب غربان فوق إحدى الجثث. رأى الأمير الضفدع باب اسطبل مفتوحاً، وسمع همساً داخله. قفز إليه. كانت أعواد التبن مبعثرة في كل مكان. إلى اليمين معزاة نافقة. إلى اليسار سبع هررة صغيرة تكومت حول أمها الميتة. الهررة ـ تشبه طابات صوف أبيض ورمادي ـ كانت تحتضر. تموء بصوت بالكاد يُسمع.

في عمق الاسطبل، فوق سرير من التبن، على ارتفاع نصف متر، رأى أربعة أقدام بشرية. قفز إلى حجر ناتىء في الجدار القريب ليتفرج على هاتين الجثتين (هكذا كان يفكر). رأى توكا وماريا. (هذا ما خيّل إليه للوهلة الأولى).

كان الشاب يصعد وينزل فوق الفتاة. ثم قام عنها، فنهضت على ركبتيها، واستدارت، وأعطته ظهرها. تذكر الأمير الضفدع حكايات صديقه توكا. (توكا الذي كان صديقه). تذكر تلك الأمسيات البعيدة، ليالي الآحاد، يقضيانها ساهرين يتبادلان الحكايات. هل هذا زوجها أم



Twitter: @ketab_n

عشيقها؟ وإذا كان عشيقها، فأين هو زوجها؟ كان أنف الشاب طويل جداً، ووجهه نحيل. أما الفتاة فبدت كأنها ستنكسر كالعود بين يديه. (يداه تمسكان ردفيها. هي تنحني على التبن. تحت إبطها الأيمن رأى الأمير الضفدع علامة الموت: كرة بحجم عين بشرية، تشبه حرقاً حديثاً). إنتظرهما حتى يتعبا.

فكر أن الشاب يشبه ثعلباً، أما الفتاة ففراشة. وللحظة إذ تجمد جسداهما في عناق يشبه عناق الضفادع تحت الماء، إنتابته رغبة عارمة في أن يصرخ صرخة بشرية واحدة. (كانت تلك هي الصرخة المؤجلة منذ ذلك المساء، عندما أدخل رأسه من بوابة شرفة بخجل كي يرى شبكة ضوء أصفر تتدلى كناموسية فوق سرير، وقد ضمت داخلها حبيبته وصديقه! لماذا لم يصرخها آنذاك؟) لكن شيئاً في الفتاة منعه. (ما الذي منعه؟ رقّة في شكلها جعلته يتخيلها فراشة! أم تلك العلامة تحت إبطها!)

قفز إلى الأرض. عند الباب أحصى ثلاث هررة ميتة. قبالته، في الجانب الآخر من الشارع، رأى رجلين يحرقان بيتاً. خيل إليه أنه يرى شخصاً يتحرك في الداخل، كالظل خلف شبك النافذة. مواء الهررة الأربع أعاده إلى داخل الإسطبل. ماذا يفعل لها؟ هل تأكل الهررة ضفادع؟ لكن هذه صغيرة جداً!



Twitter: @ketab_n

من عمق الإسطبل سمع الشاب يقول للفتاة شيئاً. هل يهمس في أذنها؟ أما يزال يعانقها من الخلف؟ (لماذا من الخلف؟ كالضفادع! كالأرانب! كأمه وباخوس الكبير في تلك البحيرة!)

مضى إلى الجسر القريب. رأى إمرأة تقف هناك، تحتضن شيئاً. سمع صوت البكاء: إنه طفلها. ماذا تريد؟ أن تقفز معه إلى النهر؟

نظر الأمير الضفدع تحتها. رأى حيوانات ميتة تطفو مع التيار. (بقرة واحدة كرشها منفوخ، حمار مقطوع الذيل، مجموعة كلاب بعضها تعرض للاحتراق ـ إنهم هؤلاء الرجال الذين يحاولون تنظيف المدينة!). ماذا يستطيع أن يفعل من أجلها؟ لا شيء. حتى الكلام لا يستطيعه. كلمة واحدة منه قد تقتلها رعباً! لكن ماذا لو أختبأ بين ألواح الجسر الخشبية، وحدثها زاعماً أنه ملاك خفي من السماء؟ يقدر أن يفعل هذا، لكن بعد ذلك ماذا يقول؟

انحنت المرأة نحو الماء. سوف تقفز. وطفلها ممدود أمامها. هكذا تسقط عليه ويموت تحت ثقلها. لماذا لا ترفعه عالياً، عالياً فوق رأسها؟

رمت المرأة الطفل في النهر.



Twitter: @ketab_n

## النهر

قفز الأمير الضفدع خلف الطفل. لماذا فعل ذلك، هو الذي لا يزيد حجمه عن حجم خد الطفل أو يده؟ ماذا سيستطيع أن يفعل له؟ لا يعرف. لم يفكر، فقط قفز خلفه.

في تلك القفزة، وللمرة الأولى في حياته، تمكن أن يمنع جفنيه من النزول على عينيه، واستطاع بالتالي وعبر التفاتة من جسمه كله (إذ لا عنق له ليلتفت برأسه فقط) أن يرى ـ بينما يخترق الفضاء مائلاً صوب الماء ـ وجه الأم الواقفة على الجسر وقد شحب حتى بات بلون الشمع. ثم غمره النهر.

ارتطمت به جثث الحيوانات، وغرزه قرن ثور في نقطة التقاء رأسه بظهره. هناك، في تلك النقطة الحساسة حيث تتجمع الأعصاب (حيث مركز الأعصاب الرئيسي الموصل بين النخاع الشوكي ـ أو السلسلة الفقرية ـ وبين الجمجمة ـ



Twitter: @ketab_n

أو الدماغ) غرزه قرن الثور، فشلّ جسمه عن الحركة شللاً تاماً. لم يفقد وعيه، عيناه ظلتا مفتوحتين، وأطرافه ممدودة كما هي، لكنه بات عاجزاً عن فعل أي شيء. النهر يقذف الثور، وهو معلق بالقرن المدبب الرأس، والطفل يجري أمام الثور، يتدحرج مع المياه والجيف، يرتطم بالصخور، يتزحلق على المنحدرات، نزولاً إلى حيث لا يعلم أحد.

عينا الأمير الضفدع المفتوحتان لحظة تحدقان إلى الماء ولحظة تتطلعان إلى السماء الزرقاء العالية. القرار ليس لهما. بل للنهر وتقلبات الثور الميت الذي تسحبه المياه كعود يابس في ساقية.

في أعماق جمجمته ظل قادراً على تذكر بعض الأشياء: ذلك الكتاب الذي أهداه إياه معلمه ايسيدور. كتاب أرسطو عن الحيوانات. كم سطراً فيه عن الضفادع؟ أقل من صفحة، عن الضفدع البحري، زعم أرسطو أنه يلتهم الأسماك. لكن ايسيدور أضاف إلى سطور أرسطو القليلة هامشاً من سبع صفحات، ضمنه رسماً خطه بيده لأعضاء الضفدع الداخلية.

كيف تعرف شكل الضفدع من داخله؟ سأله الأمير أوفيد، ابن العشرة أعوام. كيف بنظرك الضعيف تستطيع أن ترى عبر جلد الضفدع السميك إلى رئتيه وقلبه ومعدته؟ سأله الأمير أوفيد.



Twitter: @ketab_n

فأخذه المعلم إيسيدور إلى حديقة القصر، حيث قبض على ضفدع، وعادا به معاً إلى الصالة. هناك، ثبت المعلم الضفدع على بطنه، ثم أخرج إبرة طويلة من جيب ثوبه، وغرزها في نقطة التقاء رأس الضفدع بظهره. شهق الأمير، وعلى الفور كف الضفدع عن تحريك أطرافه.

إنه ليس ميتاً، قال المعلم، فقط أجبرناه على النوم مفتوح العينين. لا تخف.

بعد ذلك قلبه على ظهره، وبسكين صغيرة أخرجها من جيبه شق له بطنه طولياً. من الحنجرة، تحت كيس الصوت المتهدل كقربة مثقوبة، وحتى أسفل البطن، حيث الثقب الصغير بين الساقين. هكذا رأى الأمير أوفيد ذلك الرسم في صورته الحقيقية، لكن بلا الأرقام التي زادها المعلم على الأعضاء لإرشاد القارىء إلى أسمائها. بعود صغير دلّه المعلم عليها:

1 ـ القلب، 2 ـ الرئتان، 3 ـ الكبد، 4 ـ المعدة، 5 ـ الأمعاء، 6 ـ البنكرياس، 7 ـ الكلية، 8 ـ المبولة... وعندما انتهى من ذلك ردّ جلد البطن إلى عهده السابق، وبابرة أُخرى أخرجها من جيبه (إبرة في خرمها خيط حرير أصفر اللون) عمد إلى تقطيب الشقّ الذي أحدثه قبل قليل بسكينه الصغيرة. وإذ انتهى من ذلك ـ وموجهاً ابتسامة إلى الأمير الصغير الواقف قربه مذهولاً ـ حمل الضفدع في يده،



Twitter: @ketab_n

وأخرج تلك الإبرة المغروزة في مركز أعصابه، فانتفض الضفدع خابطاً أطرافه في الفضاء، وأخرج من فمه صوتاً كالصراخ. وإذ رماه المعلم من يده قفز إلى خارج الصالة، لا يصدق أنه قد نجا بجلده ـ فقط ثلاث قطب لا أكثر. تركت خطاً أصفر فوق بطنه الأبيض ـ الرمادي.

* * *

لو يستطيع أن يصرخ، من ينادي؟ الطفل أمامه الذي يسمع الآن صراخه كأنه اصطدم بصخرة أخرى؟ أم ينادي تلك الأم التي بالتأكيد ما تزال على الجسر تراقب طفلها يتحول إلى نقطة في المسافة؟ أم ينادي الربّ؟

حاول أن يصرخ، لم يقدر.

كيف يصرخ وذلك القرن مغروز في مركز أعصابه؟ كيف يوجه إلى رئتيه الأمر بزفز الهواء عبر حنجرته، كي تتحرك الأوتار الصوتية، ويخرج الصوت منه؟ (وسوف كالضفدع يجمع تلك التموجات في كيسه الصوتي، كما يجمع صندوق البيانو صوت النوتات داخله مكبّراً إياها، بل منظماً إياها في حزم، قبل أن يخرجها إلى العالم!) لكنه لا يستطيع، فالقرن مغروز فيه كالخنجر. (لو يستطيع كان صرخ صرخة متقطعة كالبكاء، كبكاء الطفل الذي يسحبه النهر قدّامه. يجمع الهواء القادم عبر صندوقه الصوتي، عبر



Twitter: @ketab_n

حنجرته، من رئتيه، يجمع ذلك الهواء في كيسه، ثم يرده إلى الرئتين كي ترده إليه في زفير مرة أخرى، لتهتز الأوتار الصوتية ثم تسكن ثم تهتز، لتتقطع صرخته كما تتقطع في هذه اللحظة أمعاء تلك الأم فوق الجسر!)

رأى بعوضة تكاد تحط على رأسه. إنها لا تعرف أنه يستطيع في لحظة ابتلاعها. (لو كان قادراً على توجيه الأمر عبر أعصابه إلى عضلة لسانه). وهو لم يحس بها قبل أن تصل إلى هذه المسافة القريبة. (يحس بهذه الحشرات، إذا كانت ضمن مسافة متر منه، قبل أن يراها. كيف؛ يحس بشيء كالنبض بين عينيه، هل هي قرون استشعار كائنة تحت الجلد لا يراها؟) لم تحط البعوضة على رأسه، بل على رأس الثور، قربه. (في القصر كانوا يشعلون النار في الحديقة لإبعاد البعوض. حتى جلبوا تلك الضفادع فما عادوا بحاجة إلى النار. والمعلم ايسيدور أخبره أن القصر أيام كان حصناً كان خالياً من البعوض تماماً، بسبب من كميات الضفادع الهائلة التي كانت تسكن الخندق المحيط به. لكن جفاف الخندق جعلها تهاجر!). من جلد الثور خرج شيء كالغبار (ربما ذلك تراب عالق بشعره الجعد)وملأ عيني الأمير الضفدع. أحس بالغبار في عينيه كالنار. لماذا لم تنزل جفونه لتحمي عينيه؟ أهي أيضاً تضعف أمام قرن ثور؟ انتظر



Twitter: @ketab_n

متألماً. (لكن كيف يتألم وأعصابه مشلولة ـ إنه لا يفهم! إذاً، فهذا الذي يحسه ليس ألماً، بل شيء آخر. لكن كيف يحس شيئاً أصلاً وأعصابه مشلولة؟). كانت الغدد الكائنة حول عينيه تفرز ذلك السائل لإعادة الطراوة إلى الحدقتين. ومع غطسة أخرى في النهر، عند منحدر من المنحدرات، زال الغبار من عينيه، وعاد يرى الماء والسماء.

الآن، وهو في الماء، كان بحاجة لأن يعرف أين هي اليابسة، أين هي الضفة؟ (عندما يكون على اليابسة لا يفكر إلا في جهة الماء!) وفي تلك اللحظة أدرك ذلك الشيء: ها هو للمرة الثانية يفقد بيتاً. إنه لن يرجع أبداً إلى فلورنسا بعد الآن. فأين يذهب؟ (قبل سنوات كان يفكر أحياناً بالقفز حتى يصل إلى قصر أبيه. لكنه كان يعلم أن توكا هناك. لذلك أقسم ألا يقرب إمارة أبيه أبداً. اليوم، عندما كان تائهاً في شوارع فلورنسا، سمع حديثاً عن أبيه: «المرض جاء من هناك، من إمارته!»).

كي يفكر في شيء آخر فكر في تلك الأم على الجسر. تخيلها تنام مع الرجل الذي زرع فيها بذرة ذلك الطفل. وفي موعد مجيء دورتها الشهرية لم تأتِ الدورة.



Twitter: @ketab_n

ففكرت: «إني حامل». (كلما تذكر النساء عرف أنه لا يعرفهنّ إلا من الكتب. ومن توكا). لكن كيف تتأكد من حملها؟ تذهب إلى الطبيب، فيطلب منها أن تتبول في إناء. ثم يخرج ضفدعة من فخارة يضعها تحت طاولته، ويجرح بطنها، ويدلق إناء البول فيها. ويقول للمرأة: «إرجعي هذا المساء». عند المساء ترجع المرأة لتسأله: «ماذا؟ هل باضت؟ هل أنا حامل». فيبتسم لها: «لقد باضت. أنت حامل. مبروك!».

تلك البذرة تنمو في وعائها. (وعاء مليء بالماء، قال له معلمه). تسعة أشهر ثم يخرج هذا الطفل الذي يأخذه هذا النهر الآن.

وفكر في الضفادع. الذكر يعانق الأنثى من الخلف. الأجسام كلها تحت الماء، مئات الذكور والإناث، في بقعة واحدة من المياه الضحلة. فقط الرؤوس فوق الماء للتنفس. كل انثى تعرف ذكرها من صوته. تأتي إليه ليمعس بطنها بيدين قويتين، ويلصق أسفل جسمه بظهرها. يتابعان حتى تبيض. يفعلان ذلك لوقت طويل حتى يشعر الأمير الضفدع ـ من مكمنه بين الأعشاب الطويلة ـ بالنعاس. تبيض فيخبط البيض ـ النازل منها في الماء ـ أسفل بطن الذكر خلفها. عندئذٍ يقذف الذكر، من الثقب بين ساقيه، السائل المنوي الذي سيصيب معظم البيوض ويخصبها. أثناء ذلك تخرج



Twitter: @ketab_n

من الأنثى رغوة بيضاء، وهي والذكر، بينما تبيض ويقذف، يعمدان إلى خفقها ـ خفق هذه الرغوة ـ بأطرافهم الخلفية، حتى تتحوّل إلى مادة سميكة صلبة، إلى عش للبيوض. فيما بعد يسحب الذكر هذا العش إلى غصن أو كومة قش تطفو فوق المياه الضحلة، ويتركه هناك. والأمير الضفدع يفكر بينما يخفقان تلك الرغوة ليصنعا منها عشاً للبيوض أنه يود لو يسمحان له بمساعدتهما في الخفق قليلاً. (في مطبخ القصر طالما تأمل الطباخات منحنيات فوق سطول العجين متمنياً لو يسمحن له بمساعدتهن في العجن. وذات مرة، عندما سمحت له إحداهن، أصيب بنزيف ـ لن ينسى أبداً منظر النقاط الحمراء تسقط من أنفه فوق العجين الأسمر!).

وكان أحياناً يشاهد ضفدعاً يصنع بركة صغيرة، حفرة مليئة بالماء، بالكاد تتسع لضفدعين، حتى تضع فيها الأنثى بيوضها. وكان يرى ذكوراً تحمل البيوض على أطرافها الخلفية، كما فعل زيوس (هكذا أخبره معلمه). وبعض إناث الضفادع كانت تضع البيوض على ظهرها، حتى تنزل البيوض في ظهرها صانعة لنفسها حفراً مليئةً بالأوعية الدموية. كم ليلة قضاها يراقب الضفادع وهي تتزاوج وتبيض؟ يذكر أول مرة حاول مراقبتها. كانت الذكور بالمئات تملأ بقعة من النهر، وترسل نقيقها إلى البعيد تدعو الإناث إليها. (يصل صوتها إلى ألف متر أحياناً). فجأة



Twitter: @ketab_n

التفت ذكرٌ من الذكور صوبه فأماته رعباً. لم يرَه لكنه رغم ذلك أصيب بخوف، تذكره فيما بعد إذ واجه ذلك الثعبان المخيف. فيما بعد، اكتشف أن الضفادع تغدو كأنها عمياء عند المضاجعة. عيناها مفتوحتان تبقى لكن ليس للنظر. إنها شاردة ولا تنظر، وهو يراقبها. وأحياناً يشرد مثلها، ليفكر في ماريا. وفي توكا. قالت له العجوز: «حتى يحبك إنسانٌ». كيف يجد إنساناً يحبه، وهو ما هو عليه! لم تقل له.

وهل كان عليها أن تمسخه ضفدعاً! لماذا لم تمسخه كلباً مثلاً! على الأقل الكلب يعرف نفسه، يعرف أنه ولد كلباً وأنه سوف يموت كلباً، مثله كمثل الإنسان، يولد إنساناً وإنساناً يموت! لكنها أبت إلا أن تمسخه ضفدعاً! هذا المخلوق الذي يموت ضفدعاً لكنه لا يولد كذلك!

وفكر الأمير الضفدع، وقرن الثور والنهر يجرّانه، في كوميديا باولو وما كتبه ايتالو عن دود القز. وفكر أن الدود أيضاً ـ كالضفدع ـ مخلوق لا يستطيع أن يعرف نفسه. لأنه وإن ولد دودة فهو لا يموت كذلك. الدودة تموت فراشة. والضفدعة تولد بلعوطاً. (ماذا يسمون البلعوط أيضاً؟ شرغوف). مخلوقات التحوّل هذه كيف تعرف نفسها، وهي ليست هي! الضفدع ليس ضفدعاً، ضفدعاً صار! الدودة ليست دودة، فراشة غداً ستكون!



Twitter: @ketab_n

أيام وأيام قضاها محدقاً إلى تلك الأعشاش السمراء، تطفو فوق سطح الماء، والبيوض فوقها تهتز. ينتظر الحشرات حيث هو، ولا يذهب إلى بيته إلا عندما يهلك من النعس. عدا ذلك يحدق إلى البيوض منتظراً أوان تفقيسها. حتى تخرج البلاعيط أخيراً. لو فقط يستطيع أن يعرف كيف تصنع نفسها داخل البيضة وقبل أن تفقس وتخرج منها! إنه يعرف أشياء قليلة فقط: إنها داخل البيضة تتغذى من المواد المخزنة في الصفار. ماذا يعرف أيضاً؟ إنها للخروج من البيضة تفرز مادة كيميائية تتكفل بتصديع القشرة الكلسية الرقيقة. تماماً كما تفعل الفراشة بقطرة أسيد واحدة تمزق بها نسيج الشرنقة وتخرج إلى الضوء. (ذلك المخطوط الذي أحرقه محفور في دماغه!)

معلمه إيسيدور شرَّح له بلعوطاً. كان كالسمكة الصغيرة، قاتم اللون، رفيعاً، ذيله طويل، كله خياشيم، في داخله دم وشرايين، وقلب صغير ينبض. لكنه بلا رئتين. فقط يتنفس عبر الخياشيم في جلده.

من مطرحه القريب يتأمل البلعوط خارجاً من البيضة. تحت ذقنه ملقطان، يتثبت بهما بالأعواد كي لا يقع في الوحل أو الماء. (إذا سقط مات مختنقاً. ما يزال غير قادر على السباحة).. أحياناً ينزل الأمير الضفدع في الماء، يملأ فمه، ثم يبصق على البلعوط. تجربة علمية وحسب، لا



Twitter: @ketab_n

يقصد قتله. (ذات مرة مات بلعوط، فكاد يبكي). يراقبها تتخبط في بصقة الماء، تبلعط، وبذيلها تدفع جسمها إلى اليابسة وتنجو من الغرق. بعد أيام هذه البلاعيط ستغدو قادرة على السباحة. عندئذٍ يمتص الجسم زوج الملاقط النابت تحت ذقنها.

في الماء يتغذى البلعوط كما فعل حول عشه. بأسنانه يقضم حواف النباتات النهرية. رويداً رويداً ينمو. داخل البيضة ما كان يستطيع ذلك. الغذاء المخزن في صغارها لا يكفيه. الأمير الضفدع استطاع أن يصنع بأطرافه بركة صغيرة، طولها متر تقريباً وعرضها نصف متر. (جمع وحلاً أعاق به عودة بعض الماء إلى النهر فصار عنده بركة). وفي هذه البركة رمى بعض البلاعيط. تجربة علمية أيضاً. ليراها تتحوّل إلى ضفادع.

هذه التجارب أخذت منه سنوات. ماتت خلالها تحت الاختبار بلاعيط كثيرة ممعوسة بلسانه وأسنان فكّه العلوي. لا يمعسها كي يأكلها، لا. بل ليرى أعضاءها الداخلية بينما تتطور. مراقبتها الخارجية سهلة. بعد مضي ثمانية أسابيع على نزولها للسباحة مثلاً تبدأ أطرافها الخلفية باكتساب شكلها النهائي، فيما تبرعم أطرافها الأمامية. مع مرور تسعة أسابيع جميع الأطراف ينتهي تشكلها. (هذه المعدلات التي توصل إليها، لا تعني أن كل البلاعيط تشكلت أطرافها عند



Twitter: @ketab_n

نهاية الأسبوع التاسع. هناك بلاعيط انتظرت حتى الأسبوع الثالث عشر مثلاً!). وفي الأسبوع التاسع ظهر الفم الواسع. (كان الفم صغيراً، بات الآن عريضاً). ومع كل يوم يمر يقصر الذيل قليلاً. معس الأمير الضفدع بعض البلاعيط، فحص داخلها بنظراته: قد صار عندها رئتان.

ذات يوم يمكث بلعوطٌ جامداً كأنه ميت. إنه يشبه ضفدعاً ممسوخاً لكنه ليس ضفدعاً حتى الآن. فجأة، بينما هو جامد يتحوّل: يختفي ذيله نهائياً، تتشكل الأصابع في أطرافه، يغدو أعرض بعض الشيء، ويصبح وجهه وجه ضفدع لا وجه بلعوط. أي سحر. وفي اللحظة التالية يقفز خارج بركة الأمير الضفدع (البركة التي جعلها مختبراً)، إلى النهر، أو إلى اليابسة، يقفز الضفدع، وعندما تستقر أطرافه على التراب يرفع رأسه يرى بعوضة، فيرسل لسانه خلفها. بعد الآن لن يقرض حواف النبات. قد أصبح آكلاً للحوم، ضفدعاً!

(في أحيان نادرة راقب الأمير الضفدع بيوضاً كبيرة ـ قطرها من 3 إلى 6 ملم ـ فقست منها ضفادع صغيرة مباشرة! فكر أن هذا يوازي موت الدودة دودةً، أي قبل أن تلف حولها شرنقةً ويتاح لها التحوّل إلى زيزٍ ثم فراشة. وبينما يعقد هذه المقارنة تأمل في كون التحوّل يجري دائماً في مرحلة من الكمون والسكون التام ـ الفراشة تخرج من زيز جامد، والضفدعة من بلعوط ساكن بلا حركة! كأن



Twitter: @ketab_n

التحوّل لا يجري إلا خلال نوم المخلوق!)

(لماذا تولد ضفادع صغيرة من البيوض الكبيرة! الأن البيوض الكبيرة تحتوي صفاراً أكبر، وبالتالي غذاءاً أكثر؟)

فجأة إرتطام قوي. في اللحظة ذاتها تحرر الضفدع من قرن الثور. دفع نفسه نحو الضفة فرأى الطفل ما يزال يتدحرج قدّامه. جعل الضفة عن يمينه ـ لا يريد أن يفقد حس الاتجاه ـ وبطرفيه الخلفيين دفع نفسه نحو الطفل. هدير النهر في ثقبي أذنيه، وبكاء الطفل أيضاً. كيف لم يمت بعد؟

ورأى النهر يتفرع إلى نهرين. والطفل يذهب إلى اليسار. مال الأمير الضفدع بجسمه إلى اليسار لكن تيار الماء قذفه إلى اليمين. هكذا أضاع الأمير الضفدع الطفل الذي نزل إلى النهر من أجله. وأضاعه في اللحظة التي أوشك خلالها على اللحاق به.

عندئذٍ نسي كل شيء، الضفة، البيت الذي تركه مهجوراً وراءه، سحر التحوّلات، كل شيء. الحياة لا تستحق أن تُعاش. هذه الكلمات عبرت في رأسه. ثم تلاشت. حتى الكلمات عليه أن ينساها.

فليأخذه النهر، ما عاد يريد شيئاً.



Twitter: @ketab_n

## الجزء الأخير

# الأميرة والضفدع

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

عاش في ايطاليا القرن الرابع عشر ملك له سبع بنات جميلات. لكن من جميع بناته كانت الصغرى هي الأجمل.

هذه الأميرة كانت لديها لعبة مفضلة بين جميع ألعابها. إنها طابة ذهبية. كانت الأميرة تقضي ساعات طويلة ترمي الطابة في الهواء ثم تلتقطها.

قرب قصر الملك، كانت تُوجد غابة ضخمة وكثيفة. وتحت شجرة كبيرة، عند حافة الغابة، كانت ثمة بركة عميقة ومعتمة.

في الأيام الحارة كان من اللذيذ الاستراحة تحت الظل البارد للشجرة، وإلى جوار البركة. الأميرة كانت غالباً ما تمضي إلى هناك لتلعب بمفردها.

الأميرة الشابة كانت معتادة على الركض على العشب الأخضر قرب البركة، وهي ترمي طابتها الذهبية وتلتقطها.



Twitter: @ketab_n

لكن حدث ذات يوم، إذ رمت الأميرة طابتها عالياً، أن الطابة لم تقع في يدها الممدودة، بل سقطت على العشب، ونطّت إلى البركة العميقة، ناثرةً رشاشاً قوياً.

الأميرة لم تستطع إحتمال فكرة فقدانها لطابتها الذهبية الجميلة. بدأت تبكي، راكعةً على العشب الأخضر، عند حافة البركة التي غطّت وجهها طحالبٌ خضراء. وكلما فكرت في فقدانها للعبتها المفضلة، علا صوت نحيبها.

بينما بكت الأميرة، راكعةً حيث هي في ثوبها الأحمر الجميل، والتاج الذهبي يزين رأسها، سمعت صوتاً مبحوحاً يقول:

ـ لماذا تبكين، أيتها الأميرة الشابة؟ ما الأمر؟

رفعت الأميرة رأسها لترى من الذي يكلمها. لم تستطع رؤية أحد قربها. كان هناك ضفدع فقط، رابضاً عند حافة البركة.

وهكذا قالت للضفدع:

ـ إني أبكي لأن طابتي الذهبية الجميلة قد سقطت في هذه البركة العميقة.

وأشارت باصبعها إلى البركة.

ـ لا تبكي، قال الضفدع، استطيع مساعدتك



Twitter: @ketab_n

لاسترجاع طابتك. لكن ماذا ستعطينني إذا وجدتها لك؟

ـ سوف أعطيك أي شيء تتمناه، أجابت الأميرة، تستطيع أن تأخذ ثيابي أو مجوهراتي أو حتى تاجي الذهبي، إذا فقط وجدت لي طابتي الذهبية.

ومدّت ذراعيها له بتاجها الذهبي.

ـ لا أريد لا ثيابك ولا جواهرك ولا حتى تاجك الذهبي، أجاب الضفدع، أود منك أن تحبيني. أن تدعيني أكون صديقك وأن ألعب معكِ. أريد أن أجلس قربكِ إلى الطاولة، أن آكل من صحنك الذهبي وأشرب من كأسكِ الذهبية، أريد أن أنام في سريركِ إلى جوارككِ.

ـ إذا وعدتيني بهذه الأشياء، تابع الضفدع قائلاً، سوف أغطس في البركة العميقة وأجد طابتك الذهبية. هل تعدين؟

فكرت الأميرة أن الضفدع يتكلم الكثير من الهراء، كما وأنها أرادت طابتها الذهبية بشدة. فقالت:

ـ حسناً، إني أعدك بكل ما طلبته، إذا فقط وجدت لي طابتي الذهبية.

عندما سمع هذه الكلمات، قفز الضفدع غاطساً في البركة.



Twitter: @ketab_n

غاص الضفدع عميقاً في البركة، ولم يلبث أن صعد سابحاً مجدّداً، والطابة الذهبية في فمه.

رمى الطابة إلى العشب. الأميرة كانت سعيدة جداً برؤية لعبتها المفضلة مجدّداً. إلتقطتها وضحكت فرحةً فيما ترميها في الهواء وتلتقطها مرةً تلو الأخرى.

بعد ذلك أدارت ظهرها للضفدع والبركة، وركضت مبتعدةً عبر الغابة، صوب قصر أبيها.

ـ انتظريني! إنتظريني! هتف الضفدع المسكين في صوتٍ كالنقيق: إني لا أستطيع أني أركض بالسرعة التي تركضين بها!

وقفز خلفها، محاولاً اللحاق بها. والأميرة لم تلتفت بل تابعت الركض بسرعة.

جمد الضفدع في مطرحه، على مقربة من البركة: الأمبراطور شارلمان، حاكم أوروبا في نهايات القرن الثامن للميلاد وبدايات القرن التاسع، امتلك بين تحفه الثمينة كرة ذهبية تُمثل الكون، حُفرت عليها مدارات الأجرام السماوية. وهذه الطابة الذهبية التي انتشلها الضفدع للتو من البركة تعني الكون كلّه عند الأميرة. لقد أعاد إليها عالمها، وهي ماذا فعلت له بالمقابل؟ هربت منه عبر الغابة.

الغابة؟ قبل سنوات بعيدة، بعيدة كأنها من منام عتيق،



Twitter: @ketab_n

أو من حياة سابقة لم يعشها بل قرأ عنها، اجتاز غابةً أخرى في أرضٍ أخرى، وفي النهاية تحوّل إلى ضفدعٍ.

هل يستطيع الآن، بعبوره هذه الغابة، أن يتحوّل إلى إنسان؟ أن يرجع إنساناً؟

في ساعة واحدة تزحف البزاقة مسافة عشرة أمتار. هو في قفزة واحدة يقطع ثلث هذه المسافة. إذا قفز ماضياً إلى القصر الذي تلوح أبراجه من هنا، عالية تكاد تبلغ الغيوم، سوف يصل عند المساء.

أيام زمان، أيام كان أميراً، كان يتفرج على المساء من شرفته. المساء يبدأ من تحت. ظلال تغطي الحديقة، ظلال كمياه معتمة، رويداً رويداً يرتفع منسوبها، تغطي الأعشاب، ثم البركة، ثم جذوع الأشجار، ثم تنتشر وتمتد في مواجهة السماء. وقبل أن تغمر الأشجار تكون قد غمرت شرفته.

هذه الأيام، ومنذ أن تحوّل إلى ضفدعٍ، المساء لا يبدأ تحته، بل حوله. فجأة يرى ظلالاً تغمره، وحين ينظر فوقه يرى الضوء ما يزال ممتداً تحت السماء. كأنه ينظر من تحت الماء.

فليقفز إلى القصر. يصل مع هبوط الظلام. يقفز إلى البهو المضاء بالشموع الكثيرة. شعاعها ينعكس على البلاط



Twitter: @ketab_n

كما في قصر أبيه. الملك في صالة الطعام مع بناته وضيوفه. الأميرة تأكل من صحنها الذهبي الصغير والضفدع يشق طريقه حتى البوابة ـ فيقرعها:

ـ أيتها الأميرة الصغرى، افتحي الباب لي!

ركضت الأميرة إلى الباب لترى من يناديها. عندما رأت أنه الضفدع، رابضاً على الرخام أسفل الباب، ينظر صعوداً إليها، خافت. صفقت الباب موصدةً إياه بسرعة ثم عادت إلى مطرحها حول المائدة.

رأى الملك أن إبنته خائفة. سألها:

ـ يا طفلتي، ما الذي أفزعك؟ هل هناك عملاق خارج الباب يريد أن يحملك بعيداً؟

ـ آه كلا، أبي العزيز، أجابت الأميرة، ليس هناك عملاق خارج الباب، هناك فقط ضفدع نحيل، فظيع.

ـ ماذا يريد الضفدع منك؟ سألها الملك.

عندئذٍ أخبرت الأميرة أباها بما حصل في الغابة قبل ساعات قليلة.

ـ لقد وعدته بأن أدعه يعيش معي، قالت، لكن لم أتوقع أبداً أن يأتي حتى هنا، بعيداً عن المياه.



Twitter: @ketab_n

في تلك اللحظة سُمعت طرقة أخرى على الباب وهتف صوت:

ـ «أيتها الأميرة الصغرى، إسمعي ندائي.

تذكري أنك أضعت طابتك الذهبية

بينما تلعبين بمفردك قرب البركة.

غصتُ في المياه الباردة أنا

وطابتك وجدتها، ولكِ أعدتها.

الآن رجاءً تذكري واصدقي بوعدكِ بأن تأخذيني لأعيش معكِ».

ـ عندما نقطع وعداً يجب أن نفي به، قال الملك لإبنته، إذهبي وإفتحي الباب.

ذهبت الأميرة الصغرى وفتحت الباب. وبينما عادت إلى كرسيها قفز الضفدع خلفها. وعندما جلست قال الضفدع:

ـ ضعيني على الطاولة قربكِ، رجاءً.

ترددت الأميرة، لكن الملك أمرها أن تفعل كما طلب الضفدع.

عندما أصبح الضفدع على الطاولة، قال للأميرة:



Twitter: @ketab_n

ـ رجاءً إدفعي صحنك الذهبي الصغير أقرب مني، عندئذٍ نقدر أن نأكل معاً من صحنٍ واحدٍ.

فعلت الأميرة هذا، لكن بغير إرادتها. وبالكاد لمست طعامها، وكل لقمة بدت كأنها ستختنق بها. أما الضفدع فاستمتع بأكله.

عندما انتهى من تناول الطعام، التفت الضفدع إلى الأميرة قائلاً:

ـ الآن أنا متعب، رجاءً خذيني إلى غرفتك، وسوف نستلقي على سريرك الحريري الصغير ونمضي إلى النوم.

حينئذٍ انفجرت الأميرة الصغرى في البكاء. لم تكن تود أن تلمس الضفدع البارد الصغير، وما كانت تحتمل فكرة وجوده إلى جانبها على سريرها.

عندها بان الغضب على الملك، وتحدث بحدّة إلى إبنته:

ـ حين يساعدك أحدهم عندما تكونين في مأزق، فإنك لا تستطيعين أن تديري له ظهرك، خذي الضفدع معكِ إلى غرفتكِ.

وهكذا اضطرت الأميرة لأن تحمل الضفدع وتأخذه معها إلى غرفتها.



Twitter: @ketab_n

وضعته في زاوية الغرفة، أبعد ما يمكن عن السرير، ثم دخلت إلى سريرها الحريري وأدارت ظهرها له.

مرة أخرى تكلم الضفدع.

ـ أنا أيضاً متعب، قال، وأريد أن أنام قربك، على شراشفك الحريرية. رجاءً ارفعيني.

مجدّداً بدأت الأميرة تبكي.

ـ إذا لم ترفعيني إلى سريرك، سوف أخبر أباك الملك.

عرفت الأميرة أن لا خيار عندها، لأن والدها سيجبرها على تنفيذ رغبات الضفدع. فرفعته ووضعته على المخدة قرب وجهها. وعندئذٍ فقط أتيح لها أن تنظر في عينيه: أحبته. وفي اللحظة التالية تحوّل إلى أمير.

* * *

المساء ينتشر فوق الأرض. السماء لم تعتم بعد. أبراج القصر عالية وبعيدة. فكر الأمير الضفدع أنه تصرف بغباء فظيع: ما هذا الهراء الذي قاله للأميرة؟ هل حسب للحظة أنها ستفي بوعدها، أنها ستحمله وتأخذه إلى قصر أبيها وتحبه. بلى، تحبه، تأكل معه، تلعب معه، تصادقه، وتنام معه. ما هذا الهراء؟



Twitter: @ketab_n

والآن ماذا يحصل لو أخبرتُ أحداً. «ضفدع يتكلم كالبشر غاص في مياه عند حافة البركة، وجلب لي طابتي!» إذا تكلمتُ سيأتون ويقبضون عليه. وربما شرّحوه لينظروا في صندوقه الصوتي، ليعرفوا لماذا يتكلم هكذا!

هذه البركة التي هي بيته منذ سنتين، عليه الآن أن يتركها. للمرة الثالثة عليه أن يهجر بيته. ما يزال يتذكر ذلك الزقاق المظلم في فلورنسا، والعجوز ترمي عليه لعنتها، ودرجة حرارة دمه تهبط فجأة، وبطنه ترتخي وتلتصق بالأرض القاسية! ما يزال يتذكر ـ كيف ينسى؟ ـ شبكة ضوء صفراء، وتوكا وماريا يتعانقان داخلها كضفدعي طين ضخمين! ما يزال يتذكر الطفل هاوياً من يدي أمه نحو الماء! والسماء الزرقاء عالية فوقه، والقرن مغروز فيه، وصوت البكاء في أذنيه! أخذه النهر بعيداً عن الطفل، رمى به في مستنقع. هناك، كانت حصائر النباتات تغطي وجه الماء الذي تفوح منه رائحة كريهة كالطاعون. وكلما نزل إلى الماء ليبترد التصقت بجسمه رغوة كثيفة متعفنة. وذات يوم رأى ذلك الشيء المرعب: ضفدع أخضر صغير مثله، يُبتلع حيّاً، على بعد خطوات منه. (على بعد قفزة قصيرة واحدة). وهل ابتلعه ثعبان؟ كلا، بل ضفدع طين ضخم، رمادي قاتم بشع، في رأسه ما يشبه القرون، فمه عريض كفم أفعى. رأى الأسنان في فكّه العلوي (كانت أسنانه صفراء تميل إلى



Twitter: @ketab_n

السواد، مدببة كالنصال). تطبق على جسد الضفدع الأخضر الصغير (ضفدع من ضفادع الأشجار، ماالذي جلبه إلى هذا المكان؟)، بينما لسانه الهائل (لسان ضفدع الطين) يلتف حول الأطراف الدقيقة الخضراء، ويكبلها ـ كالحبال حول أطراف نعجة. ما يزال يتذكر الأصوات التي أطلقها ذلك الضفدع الضئيل. كيف من جسم كهذا تنطلق تلك الأصوات! كيف الملائكة في السماء لم تنزل عن غيومها لنجدته! أراد الأمير الضفدع أن يصرخ، بصوته البشري، ليفزع ضفدع الطين، ليقتله فزعاً، لكن صوتاً لم يخرج من حنجرته. في النهاية، عندما أطلق صرخةً، سمع نقيقاً متقطعاً فقط: «كرارك، كراك، كوكوس، كرراك...». وهذا الصوت جعل ضفادع الطين تخرج من المستنقع (فجأة أطلت عيونها من تحت الطحالب التي تغطي وجه المستنقع) وتتحرك نحوه. لا يعرف كيف تمكن من الفرار. ظل يقفز ويقفز. قلبه يكاد يخرج من فمه، الدم يسيل من أنفه وثقبي أذنيه (لم ينزف منذ تحوّل إلى ضفدع). قفز مسافات شاسعة، يريد أن يضع الأرض كلّها بينه وبين ذلك المستنقع. حتى وجد نفسه في برّية كالصحراء. رمى نفسه على التراب الخشن، لم يعرف كيف أخذه النوم. (ربما النزيف جعله ينعس). رأى أمه تقترب منه. لم تكن كعادتها تطير بجناحي فراشة. (تلك الفراشة الصفراء تحلق خلف قصر أبيه، ترقص خفيفة في الهواء. أخبره المعلم إيسيدور



Twitter: @ketab_n

أن فمها يبقى مقفلاً منذ ولادتها حتى موتها، تعيش يوماً أو أسبوعاً بلا طعام، فقط تشرب الماء الصافي، تجذبه عبر الشق الرفيع في فمها ـ شق لا تراه العين البشرية! لذلك تبقى خفيفة، لا أمعاء فيها، لا أوراق ولا حشرات، فقط هي، تطير في الفضاء، الشمس تلمع على حواف أجنحتها الصفراء. وعندما يهب الهواء يتطاير غبار عن أجنحتها. غبار كرذاذ الماء). انحنت أمه فوقه. تريد أن تمسح الدم عن وجهه، أن تضع يداً رقيقة على رأسه. أهي أمه أم خالته! ما كان قادراً على رؤيتها. شيء ما في عينيه (أهو الدم أم التراب؟) كان يمنعه عن الرؤية. فقط يحس حضورها ويعرف أنها لم تأتِ إلى هنا بجناحي فراشة. كيف يعرف؟ أحس ارتجاج الأرض تحته، وهي تتقدم منه. كانت تخطو، وخطواتها ثقيلة. لكن لماذا خطوتها ثقيلة هكذا؟ لا بد وأنها خالته البدينة. أو هي أمه قادمة للتو من أيام مرضها. أيام كان جنيناً في بطنها، بذرة تنمو في وعائها المليء بالماء. (مياه مليئة بالغذاء، كالصفار في بيوض الضفادع!). مع الخطوة الأخيرة، خبطة على الأرض قرب رأسه، عرف أن أمه قد بلغته. لكنه يعرف هذه الخبطة، يعرف هذا الصوت. إنها لا تخطو، إنها تقفز! إنها ضفدعة. فتح الأمير الضفدع عينيه مذعوراً. لم يرَ إلا رياح الغبار والسماء البيضاء تغطيها غيوم الرمل. سوف يموت. في خوفه قفز إلى الصحراء، إلى الفراغ الكبير. هل يأتي فرجيل إليه، ويأخذ بيده! لكن



Twitter: @ketab_n

كيف يضع فرجيل العظيم يده في يد ضفدع! حاول الأمير الضفدع أن يخرج صوتاً من حنجرته، تُرى هل يستطيع ذلك؟

ـ أوفيد.

سمع صوته مبحوحاً، يشبه الهمس. لكنه صوته رغم ذلك. صوته لا النقيق الذي أطلقه في المستنقع: كركراك كركراك كركراك كوكس...

هل توقف النزيف؟ أخرج لسانه، تلمس أنفه وعينيه! الدم جف، مازجه التراب. لكن الجلد ـ جلده الذي يجب أن يبقى رطباً ولزجاً وإلا اختنق ـ كان قد أخذ يجف. (أحس بشقٍ كالحرق فوق سلسلته الفقرية). بدأ الأمير الضفدع يحفر بطرفيه الخلفيين ملجأ له في التراب. عليه أن يمكث هناك، تحت الأرض، حتى يتساقط المطر.

ما يزال يتذكر تلك الحفرة! النوم العميق فيها! برد الصحراء القاحلة! وانتظار المطر الذي لا يأتي! وتلك النمال الجافة كالتراب، يبتلعها كالشوك! في حياته كلها لم ينم كما نام خلال تلك الأيام. أحياناً، في الليل، كان يستيقظ ـ ذلك أنه ينام منذ الصباح ـ ويخرج برأسه من الحفرة. يتأمل النجوم في السماء وينظر إلى الغيوم البعيدة. في ليالٍ أخرى ـ معظمها ـ لا يستطيع رؤية النجوم. لا يستطيع حتى إخراج رأسه من الحفرة. الرمال تزحف، لها صوت كهدير النهر.



Twitter: @ketab_n

لكنه ليس تحت النهر. إنه تحت التراب. عمد إلى جرّ حجر صغير (حصاة) ليسدّ بها فم حفرته كي لا يدخل الرمل إليه خلال العواصف. وكان يعيش في خوف دائم من الأفاعي ـ ذات مرة رسم له معلمه إيسيدور أفعى من أفاعي الصحراء.

لكن أين هي هذه الصحراء! في أوروبا كلّها لا يوجد صحارٍ! ورغم المأزق المظلم ابتسم الأمير الضفدع مفكراً: «لا توجد صحارٍ للبشر، لكن للضفادع توجد. إن قرية صغيرة مهجورة، وخالية من الماء، هي أكبر صحراء يستطيع ضفدع الوصول إليها!» كان يعرف أن الماء قد لا يكون بعيداً. لكنه رغم ذلك ما كان يستطيع الوصول إليه. إذا خرج في النهار سيتشقق جلده، ويموت فوراً. لكن ماذا لو خرج في الليل؟ لا، حتى في الليل لن يقدر، إنه بالكاد يستطيع الزحف حتى فوهة حفرته!

بعد أيام، كم يوم لا يعرف، ففي الحفرة يمتزج الليل والنهار في عتمة واحدة، فكر أنه لن ينجو. فكر أنه هنا سيموت. في هذا القبر الذي حفره لنفسه. وللمرة الأولى وجد نفسه يفكر في انتحار معلمه إيسيدور. وكان يفعل هذا ـ يفكر في انتحار معلمه ـ بينما جسمه الصغير، الذي ما يزال غريباً بالنسبة إليه رغم هذه السنوات كلّها، يمتص البول المخزن في مثانته، ليعيد توزيعه عبر الدورة الدموية في أنحاء جسمه. بلى، ها هو أخيراً يشرب بوله. للمرة الأولى.



Twitter: @ketab_n

ومعلمه إيسيدور، بعد أن وجدوه ميتاً في غرفته، وقارورة السم فارغة قربه، وصندوقه الكبير مفتوح، يستقر قرب كتاب «المجسطي» لبطليموس حيث تلك الخارطة للأرض في مركز الكون. . . معلمه إيسيدور كان ميتاً وثيابه ـ ذلك الثوب الذي ينام فيه ـ يا إلهي أية رائحة فاحت من ثيابه! ومن شراشف السرير الذي كان نائماً عليه! إن الغرفة كلّها كانت غارقة في رائحة البول والعرق، وتلك الرائحة الخاصة بالرجال المسنين. أما رائحة السم فكانت قد خرجت عبر النافذة. (هو الأمير أوفيد، وقف هناك، بينما النساء يخرجن الجثة من ثيابها خلفه، لينظر إلى دجاجات تتقافز في الفناء تحته. هكذا وقع نظره على فراشة صفراء، وقد التصقت بشبك النافذة من الخارج. نقفها بإصبعه، فهوت عبر الفضاء، متأرجحة كورقة الخريف، ثم استقرت على التراب!).

غرق الأمير الضفدع في سبات عميق. في النوم نسي أنه كان أميراً. استطاع أن يرى نفسه طفلاً، أو بالأحرى بلعوطاً، داخل البيضة. كان يقضم الصفار، ممدّداً في العتمة، ينتظر اليوم الذي سيكسر فيه القشرة القاتمة التي تمنع عنه أشعة الشمس. لم يكن يعلم أنه لولا هذه القشرة الكلسية القاتمة، لكانت أشعة الشمس أحرقته قبل أن يُحرك نقطة واحدة في جسمه. وأخيراً تصدعت القشرة. خرج البلعوط من البيضة. رأى شيئاً أحمر يطير صوبه. وفي



Twitter: @ketab_n

اللحظة التالية التصق بذلك الشيء الدبق. ثم وجد نفسه في العتمة: قد ابتلعه ضفدع!

فتح الأمير الضفدع عينيه. كان يحتضر. أصاخ السمع. الريح تدحرج كرات شوك فوقه. فوق قبره. نزل جفناه على عينيه. رأى غرفة كبيرة، في وسطها طاولة مرتفعة. على الطاولة كتاب مفتوح، وشمعة مشتعلة، ودواة حبر، وريشة، ورقاق أسمر لا كلمات عليه. اقترب من الطاولة. كان يحسب أن الكتاب هو «كوميديا» دانتي. قبل أن يصل إليه فكر أنه كتاب «الكون والفساد» لأرسطو. أخيراً وجد نفسه ينظر إلى غلاف الكتاب. كان غلافاً مصنوعاً من جلد الغزال. مدّ الأمير الضفدع يده، وضع أصابعه الأربعة ـ المتصلة بالحراشف في نقطة التقائها بالكف ـ حول الريشة. عليه أن ينسخ هذا الكتاب، الذي لا عنوان على غلافه، فوق الرقاق الأسمر، الذي لا كلمات عليه. لكن كيف يفتح الكتاب! وكيف يمسك الريشة بأصابعه الأربعة هذه! صحيح أن الريشة تُمسك بثلاثة أصابع، هذه الأصابع التي يُرسم بها الصليب على الصدر، أصابع الثالوث المقدس، لكن الأصابع الثلاثة يجب أن تكون أصابع بشرية. وبلا حراشف ـ هذه القطع الجلدية المثلثة، هل يقدر أن يسميها حراشف؟ ـ تصل بين الإصبع والآخر! في الحلم أغمض عينيه، وطلب من الربّ أن يمنحه يداً بشرية واحدة، فأعطاه الربّ ذلك.



Twitter: @ketab_n

وباليد البشرية الجديدة فتح الأمير الضفدع الكتاب الضخم ـ الكتاب الذي لا عنوان على غلافه ـ فرأى أن الصفحة الأولى منه بيضاء. فتحه على الصفحة الثانية فوجدها بيضاء أيضاً. شيء فظيع قبض على قلبه. حفرة عميقة انشقت وسط صدره. أسرع الأمير الضفدع (كان خائفاً أن يفقد يده الجديدة في اللحظة التالية) وفتح الكتاب على منتصفه. (أحس بألم في كتفه: إنه كتاب ضخم، وثقيل جداً. وهو ليست له إلا يد واحدة! هذه اليد النحيلة والمريضة!). أيضاً بياض. قلب الكتاب على الطاولة مذعوراً. فتحه من الغلاف الأخير. نهاية الكتاب أيضاً بيضاء. كتاب أبيض، لا كلمات فيه، يمكث على طاولة، في غرفة مضاءة بشمعة، ينتظر الأمير الضفدع كي يأتي وينسخه فوق رقاقٍ أسمر. لكن كيف ينسخ كتاباً خالياً من الكلمات!

أليس هذا كتاب حياتي؟ تساءل الأمير الضفدع. ووجد نفسه يتذكر ذلك المخطوط الذي أحرقه. لماذا أحرقه؟ كيف يُوجد باولو المسكين بعد احتراق ذلك المخطوط الذي كتبه ذلك الرجل (ما اسمه؟ ايتالو.)

ما الذي يبرر حياة باولو! أنجب بعد أن تزوج إبنتين، ماتت زوجته، عاش مع سميلا وليديا، فقط كي يفقدهما فيما بعد. ورآه الأمير الضفدع ممدّداً، على ظهره، فوق سطح بيته، يتأمل النجوم. ورأى السلم مكسوراً، وجذع



Twitter: @ketab_n

التعريشة محطماً قربه، أمام باب الكوخ. ورأى شبحاً يشرّع ذراعيه على قمة جبل عالٍ. يتأمل مياه مضيق مسينا، لونها يتبدل من الأزرق إلى البرتقالي إلى الرمادي إلى الأسود. ذلك الرجل فوق قمة الجبل ـ باولو ـ جعله يتذكر النبي موسى، عن الجبل نزل موسى بوصاياه العشر: لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرق، لا...

أليس موسى هو الذي وجدوه طفلاً في سلة تطفو على سطح نهر؟

وتذكر الأمير الضفدع ذلك الطفل، بلا سلة، ترميه أمه عن الجسر إلى الماء. ورأى مرة أخرى وجهها المخطوف اللون، كأنه مصنوع من الشمع. أو: الملح. كتلك المرأة، إمرأة لوط، وقد نظرت إلى الموت خلفها. (نار وكبريت على سدوم وعمورة، طاعون على فلورنسا!)

سوف أموت. سوف أموت. في هذه الحفرة سأموت. أبي مات. وأمي قبل أن أولد ماتت. من هي ماريا؟ من هو توكا؟ كالأشباح خلف نافذة بيت يحترق. هل تحرق البيت نارٌ يُراد منها القضاء على الطاعون؟ أم هي الشمس تحرقه! في الغرفة، كتاب أبيض، ودواة مليئة بالحبر، وريشة قنفذ! ضوء شمس يملأ الغرفة وخيط دخان يتصاعد من الشمعة التي نفخها هواء الصباح. لكن ما هذه



Twitter: @ketab_n

الحرارة! إنها الشمس، إنها الشمس، شعاعها يمتصه خيضور النبات، كي يُوجد النبات. ليأكله الحيوان. والحيوان يأكله الإنسان. والحياة أكل. إنها الشمس، إنها الشمس. يا لها من حرارة، ترتفع حتى تشتعل ستائر النافذة، حتى يثقب حرق أسود، حرق أحمر، حرق بني، ذلك الكتاب الأبيض فوق الطاولة! (بقع حروق كأنها فوق جسد أمي). الرقاق الأسمر لم يحترق بعد. هل أصل إليه قبل إحتراقه وماذا سأفعل به؟ أية كلمات سأكتبها عليه؟ كنت أميراً. كنت أميراً ثم كرهت البشر فتحوّلت ضفدعاً. من سيصدق حكاية كهذه؟ إذاً، ماذا أكتب عليه؟ (ها دانتي يعبر المستنقع. بعوضة على كتفه. هل يعرف أنها تمص قطرةٍ من دمه ـ هذا الدم الذي جعل منه نهراً في «الجحيم» ـ كي تمنحه في المقابل الملاريا القاتلة! إنه يحسب نفسه عائداً إلى سريره، إلى الراحة وسط زوجته وأولاده، لكنه لا يمضي إلا إلى الحمى! يتلفت فيرى ضفادع تتقافز، وحشرات تطن في الهواء، فيتذكر صديقه إيسيدور. يتساءل أين هو الآن، وماذا يفعل؟ لا يخطر على باله ولو للحظة واحدة، أن إيسيدور، في سنة يحفظها المستقبل، قد يخطف روحه بيده من جسمه. بيده، بقارورة سم. قد كتب دانتي في الجحيم أن المنتحرين تُحبس أرواحهم في أشجار يابسة. وعلى الأشجار تُسلط حيوانات طائرة، لتقضم جذوع الأشجار، وتُعذب أرواح المنتحرين. وعندما ينكسر جذعٌ تسيل منه نقاط الدم،



Twitter: @ketab_n

وتهتف روح المنتحر متألمةً). وتساءل الأمير الضفدع: أليس هذا ما أفعله؟ لقد حفرت لنفسي قبراً، وأقمت فيه! فإذا مت الآن هل تؤخذ روحي إلى الجحيم وتُحبس في شجرة يابسة! هل يكون ذلك أصعب من حبس الروح في جسم ضفدعة؟

قد كنت أميراً. من يجلس هناك في الظل يراقب حركاتي؟ أضع الدواة إلى يمين الرقاق، وأغمس رأس الريشة في الحبر الأسود. يعلق رأس الريشة للحظة في شرنقة الحرير الراقدة أسفل الدواة. الكتاب المحترق، ذلك الكتاب الأبيض، يرقد على الأرض، قرب قدمي. لكن من يجلس هناك في الظل، تحت النافذة؟ رأى الأمير الضفدع، الواقف حاملاً الريشة يقطر منها حبرٌ أسود، رأى الرجل الجالس في الظل. كان رجلاً نحيلاً، أصفر الوجه، وكان حزيناً. فكر الأمير الضفدع أنه قد رآه من قبل؟ أين؟ أين؟ من هو هذا الرجل الأصفر؟

فتح الأمير الضفدع عينيه. ما هذا الصوت؟ طرقات خفيفة كنبض قلب فوق رأسه، في الخارج، شيء ما يقرع الأرض. ما هذه الطرقات؟ فجأة قفز قلب الأمير الضفدع. إنه المطر، هذا صوت المطر. زحف إلى الفوهة، أزاح الحجر، خرج إلى الليل والمطر.

ما يزال يذكر. في الليل عَبَر تلك الصحراء، يقفز فوق



Twitter: @ketab_n

برك الماء. مع الفجر وصل إلى غابة. دخلها فوجد بركة. بركة تنمو السرخسيات حولها. وصفصافة، وأشجار حور. وفطر عش الغراب الطائر. ساقه بيضاء كالثلج. صحنه أحمر منقط بالأبيض. تذكر الأمير الضفدع بيته على ضفة نهر أرنو. قفز حول البركة. نظر فوقه. نظر بعيداً عبر فسحة بين الأشجار. رأى أبراج قصر. إنه بعيد جداً، فكر الأمير الضفدع، ولن يأتي أحد إلى هنا.

حتى لو أتى أحدٌ، يستطيع الاختباء. في جذع إحدى الأشجار (شجرة ظهرت جذورها فوق الأرض، تتعرج بين الطحالب والزهور، حتى تصل إلى ضفة البركة) أقام بيته. فكر: هنا سأعيش حتى أموت.

ما يزال يتذكر. قال: «هذا بيتي الأخير». وأحياناً في الصباحات، إذ يغسل وجهه، يحدق إليه الضفدع من البركة، ليقول له:

ـ كنت أميراً!

فيبتسم الأمير الضفدع، ويبلع ـ مستخدماً لسانه الطويل ـ حشرةً تطوف فوق صورته في المياه، ثم يقول:

ـ هذا جائز. لكن كيف تعرف أنك لم تكن بلعوطاً، والبلعوط حلم أنه كان أميراً. وعندما تحوّل ضفدعاً تذكر



Twitter: @ketab_n

فقط حلمه، فنسي أنه كان بلعوطاً، وصدق أنه كان بالفعل أميراً.

هزّ الضفدع الراقد في الماء رأسه:

ـ كنت أميراً. أصبحت ضفدعاً غبياً.

ضحك الأمير الضفدع، تمطى في الشمس.

ما يزال يتذكر. منذ سنتين يقيم هنا. يحب هذا المكان. لا ضفادع طين، ولا ثعابين. (أغلب الظن أن حراس ذلك القصر قد قضوا على ثعابين ووحوش هذه الغابة كلّها). يحس أنه هنا سيموت مرتاحاً. (إذا كان الموت يمكن أن يحدث براحة). فلماذا فعل هذا الشيء الغبي؟ لماذا كان عليه أن يتكلم مع هذه الأميرة؟

فكر الضفدع الذي كان أميراً: لقد أصابني الخوف، ذلك كل شيء، خفت أن تذهب وتجلب حراساً لينتشلوا لها طابتها الذهبية. خفت أن يأتوا إلى بيتي، خفت...

فكر الأمير الضفدع: ما هذه الأكاذيب التي تخترعها؟ لو أتوا كنت اختبأت حتى ذهبوا. لماذا تكذب؟ ليس لهذا السبب تكلمت معها؟ لماذا إذاً؟ هل وجدتها جميلة؟ هي جميلة، مثل ماريا، صحيح، لكن هل أنت غبي لتصدق أنها ستحبك؟ كنت أميراً، ولم تحبك ماريا! هل ستحبك الآن،



Twitter: @ketab_n

هذه الأميرة، وأنت ضفدع! أي غباء جعلك تكشف عن نفسك لها، للعالم؟

أيتوجب عليك الآن أن تهرب بحثاً عن بيت جديد؟ لكنها على أغلب الظن لن تخبر أحداً قصتها. إنها أميرة صغيرة، وسوف تفكر أنها كذبت في وعدها، ولهذا ستحتفظ بالسرّ لنفسها. أليس كذلك؟ ولنفرض أنها أخبرت أباها: «أبي، ضفدع يتكلم مثلي ومثلك أنقذ لي طابتي». هل يصدقها؟ من يصدق كلاماً كهذا؟

لا، لن يهرب من هنا. رفع الأمير الضفدع رأسه، رأى شموعاً تضاء خلف نوافذ القصر البعيد. ورأى ظلالاً خلف النوافذ. تُرى، ماذا حصل لذلك الطفل؟ هل قتله النهر، أم أخذه إلى قرية ما، وفي تلك القرية وجده الحطّاب يطفو على سطح البحيرة، وسط الغابة. وكان الحطّاب بلا أطفال، ولا يريد شيئاً إلا أن يرزق بطفل، فأخذ الطفل إلى زوجته، وقال لها:

ـ انظري ماذا أرسل الربّ إلينا!

ضوء الشموع في القصر يرتجف، كأن القصر يحترق. على سطح القصر رأى الأمير الضفدع، بين الأعلام البيضاء، شيئاً أحمر. ما هذا؟ أهي الأميرة صعدت إلى السطح لتنظر إلى هنا، إليه؟

بلى، إنها هي. وعندما سيأتي الليل سوف يرى ضوء



Twitter: @ketab_n

النجوم ينعكس على تاجها الذهبي. النجوم، هذه الثقوب في قماشة السماء، هذه الكائنات الجميلة!

إنها هي، الأميرة. هل يناديها؟ لكن ماذا يريد منها؟ أن تحبه! ماذا يريد من حبها؟ «لن تعود أميراً حتى يحبك إنسانٌ، حتى تعود إنساناً!» أهذه كلمات العجوز؟ لا يعرف. لقد حصل ذلك قبل زمن بعيد، امتزجت الكلمات في رأسه، ما عاد يتذكر جيداً.

ربما كان ضفدعاً يلتهم الكثير من البلاعيط. فجاءت العجوز وقالت له: «لست ضفدعاً! حتى تؤمن بأخيك الضفدع، حتى تثق بابنك البلعوط، حتى تحبك ضفدعة، لن تكون ضفدعاً. كنْ هذا المخلوق الذي تقلده، كن إنساناً يلتهم البلاعيط والضفادع!»

ضحك الأمير الضفدع. لماذا ينادي على تلك الأميرة؟ لماذا يريد أن يعود أميراً؟

ماذا يوجد هناك في ذلك القصر؟

إن النجوم هنا فوقه، كل مساء يعدها، أحياناً يعدّ حتى الألفين، الرقم الأقصى. «ليس من عالم فلك استطاع أن يحصي حتى اليوم ألفي نجمٍ في السماء»، معلمه إيسيدور أخبره.

النجوم هنا، وبيته هنا، والبركة هنا. لماذا يرجع



Twitter: @ketab_n

أميراً؟ ماذا يوجد هناك، خلف الغابة، في مدن الناس؟ ماذا يريد منهم؟ امرأة؟ لماذا يحتاجها؟ طفل؟ لقد كان له طفل، وسبح معه في نهر، ثم فقده! أيريد أن يفقد طفلاً آخر؟

كنت أميراً بائساً، أميراً بائساً لم أعد. الآن، أنا ضفدع: كركراك، كركراك، كركراك، كوكوس...

ربما تلك العجوز ما كانت ترمي لعنة عليّ. ربما كانت تمنحني حياة جديدة بطريقتها الخاصة. الربّ هكذا، طرقه غامضة، لا يستوعبها دماغ إنسان، فكيف يستوعبها دماغ ضفدع كان إنساناً؟ فكر الأمير الضفدع ضاحكاً.

فوق السطح تحركت الأميرة في ثوبها الأحمر، وتاجها الذهبي. (أهي الأميرة فعلاً، أم هو يتخيل ذلك؟ وما الفرق؟). استدار الأمير الضفدع، أدار ظهره للأميرة، للقصر، للناس، قفز عالياً. عيناه مغمضتان. جسده يمتد كالسهم في الفضاء. الهواء يداعب جلده الناعم.

تناثر رشاش ماء حيث غطس. (قبل ساعتين أو ثلاث، سقطت في هذا الموضع عينه طابة ذهبية، تشبه الكون). اهتز سطح البركة متموجاً. مقدار كوب ماء طاف عن جوانبها، تسلق ضفافها، ثم شربه التراب.

في السماء تألقت النجوم.

ـ تمت ـ



Twitter: @ketab_n

روايات للمؤلف:

- **سيد العتمة**، جائزة الناقد للرواية، 1992 (دار الريّس).
- **شاي أسود** (دار الآداب).
- **البيت الأخير** (دار الآداب).
- **رالف رزق الله في المرأة** (دار الآداب).

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

## كنتُ أميراً رواية

ربيع جابر (مواليد بيروت 1972)

من رواياته:

1 ـ **سيد العتمة**، جائزة الناقد للرواية، 1992.

2 ـ **شاي أسود**، 1995.

3 ـ **البيت الأخير**، 1996.

4 ـ **رالف رزق الله في المرأة**، 1997.

المركز الثقافي العربي
ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت ـ لبنان
ص. ب 4006 ـ الدار البيضاء ـ المغرب